

الطبعة الأولى

طبعة مخرجة الأحاديث

كشف اللثام عن خبايا النفاق

إعداد

عبد العليم أحمد عبد العليم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ

كَشْفِ اللَّثَامِ عَنْ خَبَايَا النُّفَاقِ

إِعْدَادُ

عَبْدُ الْحَلِيمِ أَحْمَدُ عَبْدُ الْحَلِيمِ

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة .
٧	مقدمة صاحب الكتاب .
١٢	المبحث الأول: تعريف النفاق وبيان أقسامه .
١٣	فصل : ضرورة معرفة النفاق .
١٦	تحذير العثميين من أساليب الكفار والمنافقين .
١٨	تعريف النفاق لغة واصطلاحاً .
١٩	لماذا سمي المنافق بهذا الاسم .
٢٠	فصل : الزنديق .
٢٢	توبة الزنديق .
٢٦	توريثه وتورثه .
٢٧	مصير أولاد الزنادقة والمنافقين .
٢٨	لماذا لم يقتل النبي صلي الله عليه وسلم زنادقة عصره .
٣٢	فصل : أنواع النفاق .
٣٢	النفاق الاكبر .
٣٤	فصل منه : نفاق العلم .
٣٥	النفاق الأصغر .
٣٦	المؤمن الصادق إذا ظهر عليه خصال النفاق .
٣٩	مصير المنافق إذا مات علي النفاق .
٣٩	منشأ النفاق .
٤١	أسباب النفاق
٤٥	شعب النفاق .
٤٦	حكم الصلاة علي المنافق .
٤٧	حكم توريث المنافق .
٤٧	هجرة أهل النفاق والبدع .
٤٩	المبحث الثاني : خطر المنافقين علي الأمة الإسلامية .
٥٠	فصل : خطر المنافقين .
٥٣	تحذير القران الكريم من أساليبهم .
٥٥	فصل : حقيقة المنافقين .
٥٨	رايات المنافقين .
٥٩	جهاد المنافقين .
٦٣	أمة النفاق .
٧٩	كيف نتقي المنافقين .
٨٤	المبحث الثالث : صفات المنافقين .
٨٨	١ فمن صفاتهم : أنهم يقولون أننا بائنه وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين .
٨٩	٢ ومن صفاتهم : يخادعون الله والذين آمنوا .
٩١	٣ ومن صفاتهم : في قلوبهم مرض .
٩٤	٤ ومن صفاتهم : الكذب .
٩٥	فصل منه : علامات النفاق .

٩٧	ومن صفاتهم : عدم قبول النصح .	٥
٩٩	ومن صفاتهم : الفساد في الارض .	٦
١٠١	ومن صفاتهم قول الله فيهم : ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .	٧
١٠٢	ومن صفاتهم : أنهم يتقبلون بأكثر من وجه .	٨
١٠٤	ومن صفاتهم : الاستهزاء بالمؤمنين وعدم العناية بهم .	٩
١٠٩	ومن صفاتهم : حسن القول.	١٠
١١٢	ومن صفاتهم : الفجور في الخصومة.	١١
١١٤	ومن صفاتهم : الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل .	١٢
١١٦	ومن صفاتهم : التكبر والتعالي .	١٣
١١٨	ومن صفاتهم : ما يقع من هذه الطائفة من الامور التي.....	١٤
١٢٠	ومن صفاتهم : بغض المؤمنين والاستهزاء بهم .	١٥
١٢٢	ومن صفاتهم : يفرحون لإساءة المؤمنين ويحزنون لنصرهم .	١٦
١٢٤	ومن صفاتهم : يظنون بالله غير الحق.	١٧
١٢٦	ومن صفاتهم : الخوف والرعب.	١٨
١٢٨	ومن صفاتهم : التوالي يوم الزحف.	١٩
١٣٠	ومن صفاتهم : السعي بالفتنة بين جنود المسلمين .	٢٠
١٣٠	ومن صفاتهم : الذب عن تحكيم الشريعة.	٢١
١٣٢	ومن صفاتهم : أنهم لا يتدبرون القرآن ولا يعملون به .	٢٢
١٣٣	ومن صفاتهم : سماع الأغاني والمهليات.	٢٣
١٣٧	ومن صفاتهم : الاستتار والتخفي.	٢٤
١٣٨	ومن صفاتهم : موالاتة الكافرين .	٢٥
١٤٠	ومن صفاتهم : إذا قاموا إلي الصلاة قاموا كسالي .	٢٦
١٤٢	ومن صفاتهم : يراءون الناس .	٢٧
١٤٦	ومن صفاتهم : لا يذكرون الله إلا قليلا .	٢٨
١٤٨	ومن صفاتهم : التذنب .	٢٩
١٤٩	ومن صفاتهم : ولا ينفقون إلا وهم كارهون .	٣٠
١٥٢	ومن صفاتهم : عدم الرضا بقسمة الله ورزقه .	٣١
١٥٣	ومن صفاتهم : نقض العهد وخلف الوعد .	٣٢
١٥٤	ومن صفاتهم : إشاعة الفاحشة.	٣٣
١٥٦	ومن صفاتهم : الرطانة بالأجمية من غير حاجة ولا ضرورة .	٣٤
١٥٧	ومن صفاتهم : حسن المظهر .	٣٥
١٦٠	البراءة من النفاق .	
١٦٣	الخاتمة.	
١٦٥	المراجع.	

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا نجاد له وليا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد - صلي الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثتها، وإن كل محدثة بدعة ، ثم أما بعد :

فهذا بين أيديكم كتاب : **"كشف اللثام عن خبايا النفاق"** أردت به أن أساهم في بيان صفاتهم، رغم أن هذا الكتاب غير مستوف لما فيه بيان النفاق بالكلية، إلا أنني أرجوا أن أساهم ولو بلبنة في صرح الإرشاد الشامخ ، تدور مواضيعه حول النفاق وأهله وبيان أحوالهم وصفاتهم، حتي يكون الإنسان منهم علي علم وحذر، فيتجنب الغي ويتبع الرشد، كي لا يقع في دائرة الهلاك باتباع أهل النفاق والرياء.

"وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) "النساء

تدور مواضيع هذا الكتاب حول المباحث الآتية :

المبحث الاول : تعريف النفاق وبيان أقسامه .

المبحث الثاني : خطر المنافقين الاحق علي الأمة الإسلامية .

المبحث الثالث : صفات المنافقين علي وفق ترتيب الكتاب والسنة .

والله أسأل أن يباعد بيننا وبين النفاق، كما باعد بين المشرق والمغرب، وأن يطهر قلوبنا منهم، ومن صفاتهم، وأن يجعلنا من عبادة الصالحين غير المنافقين الذين

وصفهم الله في محكم التنزيل "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) " الزمر

وأنا أرجوا قراءة الخاتمة في آخر الكتاب قبل البدء في قراءته؛ حتى تستقيم لك الطريقة التي سرت من خلالها في عرضي لهذا الكتاب، وأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه، وافيا لغرض القارئ، ملما بما جاء عن النبي ، وما كان عليه أصحابه - صلي الله عليه وعلي آله وأصحابه وسلم - .

عبد الحليم أحمد عبدالحليم

الحمد لله الذي يعلم ما تكن السرائر، من قلوب العباد وأجنةٍ في بطون الحرائر، ونملٍ أسودٍ في ظلامٍ ليلٍ غابر، لا تخفي عليه الحقائق ولو تخبوا خلف الظواهر، إن يشاء ربي يظهرها تعلقو في الأفق لكل ناظر، وتتعرض في الطريق لكل مارٍ وعابر، يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء له علي خلقه حكم قاهر، من ذا يدفع الموت عن نفسه فيؤخر أجله إن كان قادر، تُزف الخلائق إليه زفا، ورد الخليقة لأمره صائر، كشف عن قلوب المنافقين فإذا ما أضمر من السوء ظاهر، وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلي بعض علموا بفضح الضمائر، بارت تجارتهم وباعوا ما تبقي بعظيم الخسائر، ترقوا في درجات الكفر حتي تداركوا بنزول المقابر، فنيت أجسادهم ونادي: " **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)** " الطارق، خرجوا يتسابقون لموقف الحشر كالعهن بين مغبون وخاسر، دعوا إلي السجود فما كان منهم أحد قادر، فأسكنهم الله الدرك الأسفل من النار في دار الخلد بلا خروج ولا تناصر، وحقّت عليهم كلمة العذاب " **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)** " الطارق

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فتح أبواب المغفرة، وتاب علي من جاء بقلب حاضر، وقبّل عن عباده مالم تجاوز الأرواح الحناجر، وأسعد المؤمنين بنصر النبي بسيف وخنجر، فسادو العالم بنصر ساحق مؤازر، وهذا وعده بالنصر لكل مستبسل النفس صابر .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أنار الله له طريق الهدى ونزل له المنابر، فصعد النبي بدين جديد معاصر، صادق القول غير كذاب ولا ساحر، فغرس في القلوب من الإيمان ما يزول به كيد كل ماكر، حتي نصر الله المؤمنين وخفف عن بلال وأل ياسر .

اللهم صل وسلم وبارك علي رسولك الكريم، المطاع الامين، وعلي أله وصحبه أجمعين، ومن سار علي نهجه، واقتفي أثره إلي يوم الدين .

أما بعد :

الحمد لله الذي أنار لي الطريق بكتابة هذا الكتاب وترتيبه، فله الحمد علي توفيقه،
أحمده سبحانه علي ما أسدي إلي من نعم، وفتح مع ذلك أبواب الجود الكرم، ثم أما
بعد :

فلقد علمت أن الانسان يمكن له أن يسير علي نهج الصالحين في طريق الله المستقيم،
يقتفي أثر الصحابة المهتدين المهديين علي وفق شرع الله وسنة رسوله الكريم، وذلك
بعد أن يعلم الانسان أعدائه؛ فيكون منهم علي حذر؛ حتي لا يقع في دائرة الخذلان
وهو يحسب نفسه من الصالحين؛ فيعمل لله علي جهل وهو يري نفسه علي بصيرة :
" **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَاتِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا
كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا (١٠٦) "** الكهف

وهذه الآيات عامة لكل من عبد الله علي غير طريقة مرضيه، يحسب أنه مصيب
فيها وأن عمله مقبول؛ وهو مخطئ، بل عمله مردود^(١) كما قال تعالى: "**وَجُودًا
يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) "** الغاشية

: أي وجوه الكافرين يومئذ ذليلة، قاله قتادة ، وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها
عملها، وقوله تعالى "**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ**" أي قد عملت عملا كثيرا، ونصبت فيه، وصلبت
يوم القيامة نارا حامية^(٢) قال تعالى: "**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَّنْثُورًا (٢٣) "** الفرقان

فالإنسان لا يمكن له أن يعبد الله حق العبادة، علي تمام ما جاء به رسول الله - صلي
الله عليه وسلم - إلا أن يعرف الإنسان أولا: بدع أهل الأهواء، وعمل أهل النفاق
والرياء، فيتخذ لنفسه منهم تقية، ويكون من الذين رسم الله إطارهم بقوله: "**أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) "** الاسراء

^١ تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٤)

^٢ المصدر السابق (٤/ ٥٠٣)

فرأيت أن أبين في كتابي هذا؛ صفات المنافقين وأعمالهم واعتقاداتهم، إذ أنه يمكن للإنسان بكل سهولة أن ينخدع فيهم؛ فيسمع لقولهم، ويعجب بفطنتهم وذكائهم، ويتوهم صلاحهم، ويحمل نفسه علي اتباعهم؛ فما ابتلي الله تعالي به هذه الأمة أن جعل بين صفوفها من يتقلب علي المحاجة، يروغ روغان الثعالب، يجول ما بين رائحة تمر وغادية يدبر المكر والسوء للإسلام والمسلمين، ومع ذلك لا نعلمهم ولا نعرفهم، لولا أن بين الله صفاتهم، وفضحهم بأفعالهم " **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأْتَهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَنِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) "** المنافقون

فيجب علي كل مسلم أن يكون منهم علي علم وحذر، ويحرص علي أن لا يُؤتي للإسلام من قبله .

وأما سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم – كشف اللثام عن خبايا النفاق – لما أنهم يترينون بأعمال أهل الحق؛ فيظهرون الإيمان، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويتبادلون فعل الخير، ويتصافون بأكتاف المسلمين، وهم أكثر الناس إنفاقاً، وأعظمهم إحساناً، وأروعهم أسلوباً، وأشدهم بياناً، وأفصحهم كلاماً؛ لكنهم في الحقيقة بعيدين عن ذلك كله، خارجين منه، أعداء يتصدون له " **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ "** المنافقون، فلا تري المنافق إلا لامعا وبّاصاً، قد ربطوا عصابة الجهاد، ورفعوا رايات النصر والاستشهاد، وأخذوا بعنان الخيول والإبل؛ لملاقاة العدو علي أتم الاستعداد، يسابقون خالد والمقداد .

فيا لله ما أجمل صفاتهم الظاهرة التي يتظاهرون بها " **يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) "** النساء

قال النبي - صلي الله عليه وسلم -: " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلي هذه مرة وإلي هذه مرة " (١)

^١ أخرجة الإمام مسلم في صحيحه (٢٧٨٤)

فمصيبة الإسلام منهم أيما مصيبة "وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبَادِنِ اللَّهَ وَلْيَعْلَمْ
الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّبِعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا
قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا
لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ
أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)". . ال عمران

فيا أخوة الإيمان: لا بد أن نكون منهم علي حذر؛ لأن من أشرف ما يسعى إليه
العقلاء؛ هو تهذيب المرء نفسه تهذيبا حقيقيا يعرف به ما يجب له وما يجب عليه،
فيخلص نفسه من صفاتهم المذمومة؛ لتصفوا مودته، وتحسن معاملته، ويدع النفاق
والرياء، ويعطي كل ذي حق حقه، ويعبد الله علي بصيرة، عالما بأحكامه؛ عالما
بأن النفاق هو الخلق المذموم الذي يبغضه الله ويبغضه رسوله - صلي الله عليه وسلم
-، ولا يليق بالمؤمن ذي الهمة الشّماء أن يكون متصفا به؛ فالمسلمون جميعهم في
مركب واحد يتلاطمهم الموج من كل جانب، وتحيط بهم الفتن في ظلام مكابذ؛
فعليهم ألا يرفعوا رايات النفاق حتي لا يصيروا في مثل حذقة البعير من ضيق الحال
ونكد العيش .

علي كل مسلم أن ينجو بنفسه، وأن يعرف عقيدة ربه ومعتقد نبيه - صلي الله عليه
وسلم - فإن الخاسر الهالك من وقع في سوق النفاق، يكابد الخسائر، ويتاجر بدينه،
وينفق من قواه، ويقامر بأيامه، ويصارع حظه الشقي، فلا يكون حاله إلا كما وصفه
الشاعر :

رأيت النفاق شر الطباع فلم تسلم منه نفسي بالقليل .

ووقعت أسيرا يوارى الذنوب مريض القلب بالنفاق ذليل .

فيا أيها الشريف العاقل، احرص علي سلامة قلبك من النفاق، وبرائة لسانك من
الملق، ونزاهة نفسك من الرياء؛ فلا تصعد في مناصب الرياء صعود الشمس في
الأفاق، واستبدل كلام الشاعر بكلام أحمد الزين يقول في وصف نفسه بالرأي :

وَأزْهَدْ فيما بناه الرياء ... وَأصدعُ بالرأي مهما هدم .

فأهون عليا بدنيا النفاق ... وجاه ينال ببيع الذمم .

فلا تطلبين و داد الصديق ... بمدح تزوره أو بزم .
فإن اللسان رسول القلوب ... يحدث عنها بلا أو نعم .
وإن العقيدة عرض فصله ... إن كنت ممن يصون الحرم .^(١)
والحمد لله رب العالمين .

كتبه : عبد الحلیم أحمد عبد الحلیم

^١ انظر بيتمة الدهر (٢/ ٣٤٩ ص)

البسبب الأول:

تعريف النفاق وبيان

أقسامه.

فصل في : ضرورة معرفة النفاق .

وعوداً علي بدء؛ فإنه لابد للإنسان كي يعبد ربه عبادة صحيحة أن يعرف النفاق والمنافقين؛ حتي يكون منهم علي حذر، ولا يكتفي بمعرفة العقائد الصحيحة وشغل نفسه بالطاعة والعبادة فحسب ، وإن كان ذلك أيضا يستلزم معرفة النفاق حتي تسلم العقيدة لباريها، وإلا وقع الإنسان في شعب النفاق وهو لا يدري .

قال شيخنا الألباني في خاتمة كتابه " الاجوبة النافعة " تحت فصل : بدع الجمعة :

" ولا بد من كلمة قصيرة بين يدي هذا الفصل فأقول:

إن مما يجب العلم به أن معرفة البدع التي أدخلت في الدين أمر هام جدا لأنه لا يتم للمسلم التقرب إلى الله تعالى إلا باجتنابها ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة مفرداتها إذا كان لا يُعرف قواعدها وأصولها وإلا وقع في البدعة وهو لا يشعر؛ فهي من باب: "ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب" ، كما يقول علماء الأصول رحمهم الله تعالى " (1)

كذلك النفاق لا يتم للمسلم التقرب إلى الله تعالى إلا باجتنابه ولا يمكن ذلك إلا بمعرفته؛ فإن من لا يعرف ذلك وقع فيه كما هو مشاهد من كثير من المسلمين .

ومن هنا يثبت معرفة النفاق لتسلم عبادة المؤمن من الأمور التي تنافي التعبد الخالص لله وحده لا شريك له؛ فالنفاق من الشر الذي يجب معرفته لا لإتيانه وإنما لاجتنابه علي حد قول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه .

ومن لا يعرف الشر ... من الخير يقع فيه .

وهذا المعني مستقي من صحيح البخاري ومسلم أن حذيفة بن اليمان، قال: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم»، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دَخْنٌ»، قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتكر»،

¹ انظر : الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة (110/1) .

فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها»، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: يا رسول الله، فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١)

وكان أول من اهتم بالنفاق أو علم النفاق، وتبحر في فصوله وفروعه، كان هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقد قيل للحسن رحمه الله: يا أبا سعيد إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك، فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان، وقيل لحذيفة: نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فمن أين أخذته؟ فقال: خصني به رسول الله - صلي الله عليه وسلم -، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني، وقال مرة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير.

وفي لفظ آخر كان الناس يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رأني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم، وكان حذيفة قد أفرد بمعرفة علم النفاق، وبه أفرد بسرائر العلم، ودقائق الفهم، وخفايا اليقين من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله - صلي الله عليه وسلم - يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي خص به، ويسألونه عن المنافقين، وهل بقي منهم ممن ذكر الله تعالى وأخبر عنهم أحد؟ فكان يخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم، وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئاً من النفاق فبرأه منه، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق؛ فيخبر من ذلك بما يصلح مما أذن له فيه، ويستعفي مما لا يجوز له أن يخبر به فيعذر في ذلك.^(٢)

فالنفاق ليس له حد يقف عنده إذ أنه يفسد الطباع، ويغير الأوضاع، ويذهب ببهاء الأعمال، فهو بما يحبط من العمل مدعاة للبطالة والكسل، ومفسد لنظام الإنسان، ومقوض لدعائم

١ صحيح البخاري ٣٦٠٦ صحيح مسلم ١٨٤٧

٢ انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد (٢٠٨/١).

العمران ، "فإن الصادق يخاف النفاق علي نفسه ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة، فهو في شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه " (١).

وإنما نذكر خطورة النفاق حتي يكون كل منا علي حذر، ولأن الإنسان إذا علم بخطورة الشيء كان أشد منه حذرا، ولو لم يعلم عنه غير ذلك؛ فإنه يرتدع لأول وهله يذكر فيها ما يحذر منه، وإذا عرف أهميه الشيء كان أقرب منه عملا، وأشد له طلبا ولو لم يعلم عنه غير هذه الأهمية، ولأن أهمية الشيء مرهونة بنتائجه فإن حصاد النفاق خطير، وعواقبه مؤلمه ، " **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) النساء .**

قال الحسن: لأن أعلم أي بريء من النفاق أحب إلي من طلاع الأرض ذهباً.

قال ابن أبي مطيع : سمعت أيوب وعنده رجل من المرجئة، فقال الرجل: رأيت قوله عز وجل: " **وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)** " التوبة مؤمنون أم كفار؟ قال: اذهب فاقرأ القرآن فكل آية فيها ذكر النفاق فإني أخاف على نفسي " (٢).

ولعل الإنسان بعد تقدم عمره لا يزال يعمل بصفات المنافقين ولا يدري؛ ذلك لأنه لم يكن علي وعي كاف لبيان خطورة ما يحذر منه، وإذا غفل الإنسان عما يحذر منه فلا يسأل من أين دخل اللصوص؟.

يقول أحد مشاهير الفلاسفة _إدمون يوركا_ : " إن كل ما تحتاج إليه قوي الشر كي تنتصر هو أن يظل أنصار الحق مكتوفي الأيدي دون القيام بعمل ما " .

فيا معاشر المؤمنين : إن مما ينبغي التأكيد عليه هو الأمر الذي عليه فلاح المؤمنين، فإن خطط اليهود المتآمريين علي الإسلام لا تقف عند حد معين، وتكاد تكون هي ذاتها منذ هجرة النبي - صل الله عليه وسلم - إلي الدينة المنورة بتغذية الأرواح بالأحقاد، وتزكيتها بالنفاق، وإشعال نار الفتنة لتدمير المجتمع المسلم بنشر الفساد والانحلال بين أفرادها، فإن المنافقين والكافرين واليهود وغيرهم لا يرضون منا إلا ما يجدون عليه أنفسهم من الكفر والضلال، قال تعالي : " **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ**

١ مجموع رسائل ابن رجب /ب علامات العلم الغير نافع.

٢ تذكرة الحفاظ (ج ٢ ص ٧٦) من طريق عبد الرحمن بن مهدي وعن سلام بن أبي مطيع قال سمعت

أيوب ...إلي أخره

الهُدَى وَلَنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
(١٢٠) " البقرة .

فالكافر لا يقول لك أمام عينك أكفر؛ لأنه يعلم يقينا أنك لن تكفر، بل يظهر فقه الدعوة عنده بأن يبسر لك أساليب الكفر؛ فيدس لك من الأسباب ما يجعلك تكفر وأنت لا تدري، وذلك باستغلال جهلك بخطورة الشيء فيبسر لك ما يجعلك تقتنع تماما بدعوته دون الإجمار من أحد، وأنت تظن ذلك مفهوم الحرية والعلم والحضارة وغيره - نسأل الله العافية .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال : قال النبي - صلي الله عليه وسلم - :
«لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشْبِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جَرَّ ضَبِّ سَلَكَتُمُوهُ»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن»^(١).

فصل منه في : تحذير العثميين من أساليب الكفار والمنافقين .

حذر العلامة ابن العثيمين من أساليب الكفر والنفاق تحذيرا بالغ فيه بالنصح والتمام؛ فقال - رحمه الله - في مجمل ما ذكره من الفوائد : " إن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر، إلا أن يكون وسيلة إلى الكفر، لأنه الغاية، قوله سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ " (١٠٠) " ال عمران .

وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جداً ومتنوعة، منها: أن يفتحوا عليهم باب الشهوات.

فإن باب الشهوات باب واسع، والضيق من أبواب الشهوات يتسع بسرعة ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " ^(٢) ولهذا هم - قبهم الله ولعنة الله على اليهود والنصارى جميعاً- يسعون جادين على أن يعطوا المرأة ما يُسمى بالحرية، وهي في الحقيقة الرق وليست حرية، لأن المرأة - ومثلها الرجل - إذا خرجت عن حدود الله، خرجت من رق الدين إلى رق الشيطان، تخرج من رق الدين

١ صحيح البخاري واللفظ عنده { قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى } (٣٤٥٦) صحيح مسلم

(٢٦٦٩) واللفظ عنده { يا رسول الله اليهود والنصارى }

٢ رواه البخاري (٥٠٩٦)

وهو الرق الحقيقي، لأنه عبودية لله إلى رق الشيطان، وإذا خرجت إلى رق الشيطان واسترقها الشيطان صارت عبداً له، هلكت وأهلكت، قال ابن القيم رحمه الله:
هربوا من الرق الذي خلقوا له... فبلوا برق النفس والشيطان .

(هربوا من الرق الذي خلقوا له): الرق الذي خلقنا له هو عبادة الله عز وجل، (وبلوا): يعني ابتلاهم الله برق النفس والشيطان، ولهذا تجدهم يُركزون على المرأة أن تتدهور، وتحرر من عبودية الله لتقع في عبودية الشيطان، لأنهم يعلمون أن أشد فتنة على الرجال هي المرأة، فيسعون بكل جهدهم على أن تختلط بالرجال، وتشاركهم في الأعمال، ويلصق منكبها بمنكبه، وساقها بساقه، ويشم رائحتها، وتشم رائحته، وتُصافحه، وربما تعانقه، لأنهم يعلمون أن الإنسان إذا وصل إلى هذه الدرجة بقي حيوانياً بهيمياً ليس له أي غرض إلا أن يشبع غريزته - والعياذ بالله - وحينئذ ينسى الدين وما وراء الدين، ويرجع بعد ذلك إلى الكفر.

لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين: اكفروا لأنهم لو قالوا: اكفروا، ما كفروا بل لقالوا: نعم كفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، ونضرب هامك، لكنهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق، والفسوق بريد الكفر " . ١ هـ

فعلي كل إنسان أن يتجنب النفاق وأهله حتى يخلص دينه، وتخلص عبوديته لله وحده لا شريك له، يقول الشاعر :

والسير في ركب النفاق جريمة ... والركب يهزأ بالكتاب ويلحد .

فعليك أخي أن تنظر إلي أبعد الحدود التي يصل إليها النفاق ومداهنة المنافقين؛ لتكون علي علم منها؛ فمصائد الشيطان كثيراً ما يقع فيها العابد قبل العاصي، والملتزم قبل المفرط، والعقيدة الإسلامية تواجهه في حاضرها خطراً متزايداً من هؤلاء المنافقين ومن تحركاتهم الداخلية؛ فعلي جميع المسلمين في شتى البقاع أن يتقدموا بخطوة علمية عملية نحو عدوهم الذي حذرهم الله منه، والكلام متقدم علي خطورة النفاق وجهادهم - إن شاء الله .

فصل في : تعريف النفاق لغة واصطلاحاً .

النفاق مصدر وأصله : النون والفاء والقاف، وهي أصول صحيحة في الكلمة، وكلمة نفاق لها أصلان يدل أحدهما علي انقطاع الشيء وذهابه، ويدل الآخر علي خفاء الشيء وإغماضه، وهو مصطلح إسلامي لم تعرفه العرب بمعنى : التظاهر بالإسلام وادّعاء الإيمان كذبا، ومخادعة المؤمنين مع إبطان الكفر وعدم الإيمان .

النفاق لغة : من النَّفَقَ وهو السرب في الأرض النافذ إلي موضع آخر، والداخل فيه يستتر به، وَجَمَعَ النفاق أنفاق، ومنه قوله تعالى : " وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) " الأنعام .

والنافقاء موضع يرقعه اليربوع أو الجربوع من حُجره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانثقق وخرج منه، وقد اشتق منه النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر؛ فشبه بالذي يدخل النفق كاليربوع (١) وشرحه متقدم إن شاء الله .

قال ابن منظور : قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق؛ من لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. وأما كفر النفاق فإن يقر بلسانه ويكفر ولا يعتقد بقلبه. (٢)

والنفاق فعل المنافق يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقا، وذكرنا أصل النفاق أنه مشتق إما من خفاء الشيء وإظهار غيره، أو نافقاء الجربوع في البرية وسنعرف ذلك إن شاء الله

وأما تعريف النفاق إصلاحا : هو ستر الكفر وإظهار الإسلام بمعنى أن يكون كافرا بقلبه، ويظهر للناس أنه مسلم بقوله وفعله، ولعل أجل تفسير وأوضح تعبير لكلمة النفاق هو ما

١ مقاييس اللغة: ٤٥٤/٥، ترتيب القاموس: ٤١٩/٤، لسان العرب: ٣٥٨٣٥٩/ ١، الصحاح للجوهري:

١٥٦٠/٤، غريب الحديث لأبي عبيد: ١٣/٣، النهاية لابن الأثير: ٩٨/٥.

٢ لسان العرب ١٤٤/٥

ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره قال - رحمه الله - : " النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ".^(١)

قال الحسن رحمه الله : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، واختلاف اللسان والقلب، والمدخل والمخرج .

وقد يسمي المنافق زنديقا كما فعل كثير من علمائنا - رحمهم الله - قال القاضي أبو يعلى وغيره : " الزنديق هو الذي يستبطن الكفر ولا يظهره " ، وقال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : " قال علماؤنا : أن الزنديق هو المنافق "^(٢)

والنفاق بهذا المعنى لم تعرفه العرب إلا عند دخول الإسلام

فصل منه : لماذا سمي المنافق بهذا الاسم ؟:

أخذ هذا الاسم من عمل حيوان يعيش في البرية هو الجربوع أو اليربوع، وهذا الحيوان الصغير من شدة حرصه علي التخفي من الأعداء؛ يحفر لنفسه حفرة ذات أبواب متعددة، من هذه الأبواب باب واحد مفتوح معين بعلامات يعرفها بحواسه، وهذا الباب هو المدخل والمخرج الرئيسي، ويسمي بالناقفاء أما الأبواب الأخرى فأبواب مخفيه، بمعنى أنه يحفر لنفسه داخل الأرض في بقاع متعددة، ثم يرتفع شيئا فشيئا عن سطح الأرض وإذا ما اقترب من الوصول من سطح الأرض ترك قشرة بسيطة بحث أنه يضربها برأسه فيدخل أو يخرج إذا ما تعرض لحالة هجوم من تحت الأرض أم من فوقها وهذه الأبواب تسمي بالقاصعاء وهي أبواب لا تفتح إلا في حالة الطوارئ فقط .

قال ابن الأعرابي : قصعة اليربوع أن يحفر حُفيرة ثم يسد بابها بترابها، ويسمى ذلك التراب الداماء، ثم يحفر حفرا آخر يقال له الناقفاء والنفقة والنفق فلا ينفذها، ولكنه يحفرها حتى ترق، فإذا أخذ عليه بقاصعائه عدا إلى الناقفاء؛ فضربها برأسه ومرق منها، وتراب النفقة يقال له الراهطاء .

قال ابن بري: جرة اليربوع سبعة: القاصعاء، والناقفاء، والداماء، والراهطاء، والعانقاء، والحائياء، واللغز .

١ القرآن العظيم /١ ص ٤٥ .

٢ جامع المسائل لابن تيمية ١٣٣/٤

قال أبو عبيد: سمي المنافق منافقا للنفاق وهو السرب في الأرض، وقيل: إنما سمي منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاه. يقال: قد نفق به ونافق، وله جحر آخر يقال له القاصعاء، فإذا طلب قصع فخرج من القاصعاء، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء، أو يدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء، فيقال هكذا يفعل المنافق، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.^(١)

فصل في الزنديق :

ذكرنا أن الزنديق اسم يطلق علي المنافق وقد قال ذلك كثير من العلماء باتفاق بينهم، وهو في الظاهر لا يطلق علي المنافق فحسب، بل يطلق علي كل من المجوسي والدهري والمنافق والجهمي ، وغيرهم؛ والزنديق من الثنوية: وهم من يقولون ببقاء الدهر، وبالتناسخ، وكذلك يطلق الزنديق علي الذي يحتج بالقدر .

وأصل الزنديق : قال سيبويه : الهاء في زنادقة ، عوض من الياء في زنديق ، وأصله الزناديق، وقال الجوهري: الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع الزنادقة، وقد تزندق، والاسم الزندقة.^(٢)

وقال الفيروز أبادي: الزنديق بالكسر من الثنوية، أو هو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالأخرة والربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان.^(٣)

ومعني القائل بالنور والظلمة فحاصل ما قيل: أن النور والظلمة قديمان وأنهما امتزجا فحدث هذا العالم كله منهما، فمن كان من أهل الشر فهو الظلمة، ومن كان من أهل الخير فهو من النور، والزنديق يطلق علي كل من يعتقد ذلك .

والزنديق كلمة معربة عن الفارسية استعملها المسلمون أولا في الدلالة علي القائلين بالأصليين النور والظلمة ، ومذهب المانوية (المجوس) وغيرهم، ثم اتسع معناها عندهم فشمل الدهريين، والملحدين، وسائر أصحاب المعتقدات الضالة، بل وأطلق علي المشككين،

١ لسان العرب ٣٥٩/١٠

٢ المصدر السابق ١٤٧/١٠

٣ القاموس المحيط ٨٩١/١

وكل منحرف عن أحكام الدين ، وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب رجل زندق وزندقي إذا كان شديد البخل .

ويحدد المسعودي في كتابه مروج الذهب ظهور هذه الكلمة وارتباطها بعهد "ماني" وإليه أضيفت الزنادقة حيث أن الفرس أتاهم " زرادشت " بكتاب يسمى " البستاة " وعمل له تفسيراً سماه " الزند " وعمل لهذا التفسير شرح سماه " البازند " فكل من عدل من "البستاة" إلي " الزند " وشرحة " البازند " قالو عنه زندي لأنه مؤول ومنحرف عن الظاهر المنزل؛ فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعني عن الفرس وقالوا زنديق .

والثنوية هم الزنادقة ، وعند التأمل علي من أطلق عليهم وصف الزنادقة نجد اختلافا ظاهرا فمنهم من يطلقه علي " ماني " ومعتقدي مذهبه ومنهم من يطلقه علي غيرهم.

وقد أجمل أحمد أمين في " ضحي الإسلام " القول في ذلك، فهو يري أن الزندقة لم يكن معناها واحد عند الناس علي السواء؛ فمعناها في أذهان الخاصة والعلماء، غير معناها في أذهان العامة، ويستخلص هو- رحمه الله - بعد بسط القول في توضيح ذلك أن الزندقة علي معاني أربع :

أولا : التهلك والاستهتار والفجور من تبجح في القول يصل أحيانا إلي ما يمس الدين ولأن قائله لم يفعله عن نظر وإنما قاله عن خلاعة وجنون .

ثانيا : اتباع دين المجوس وخاصة دين " ماني " مع التظاهر بالإسلام كالذي اتهم به الاخفشيين والذي اتهم به بشار، وحماد ، وابن المقفع .^(١)

ثالثا : اتباع دين المجوس وخاصة دين " ماني " مع عدم التظاهر بالإسلام كالذي يرويهِ الجاحظ عن كتب الزنادقة .

رابعا : ملحدون لا دين لهم كالذي يحكه المعري .

قال : ولكن يظهر أن الكلمة أكثر ما كانت تطلق علي من أعتقد المانوية باطنا والإسلام ظاهرا ثم توسعوا في معناها فأطلقوه علي الإباضي والملحد الذي لا دين له " ا.هـ

وقال النووي في لغات الروضة : الزنديق : الذي لا ينتحل ديناً.

١ هؤلاء الثلاثة قتلوا في العصر العباسي لاتهامهم بالزندقة علي يد أبي جعفر المنصوري والمهدي والهادي

وفي شرح العقيدة الواسطية : الزنديق هو: المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهو الذي يتلون، وقد يكون معنى الزنديق: الخارج عن السنة، ولهذا قال الإمام أحمد: (أهل الكلام زنادقة) يعني: من أهل البدع، فكلمة زنديق في حد ذاتها لا يلزم منها التكفير؛ لأنها قد تستخدم للخارج عن السنة، وقد تطلق على بعض أهل البدع، وإن كان أكثر شيء استخدم كلمة زنديق على المنافقين.^(١)

ومما سبق يتبين أن الزندقة أشد خطورة من المناقفة، لكنها أكثر ما تطلق على المنافق لكون النفاق نوع من أنواعها، وقد أطلق جماعة من فقهاء الشافعية أن الزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر.^(٢)

والزنديق هو المنافق على المشهور، وإن كان بعضهم يفرق بين الزنديق والمنافق؛ لكن المشهور أنه هو بعينه .

قال مالك: المنافق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم.^(٣)

فصل منه في توبة الزنديق :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله: أن كل زنديق كتم زندقته وجدها حتي قامت عليه البينة قتل ولم يستتب، وهذا ما روي عن أبي إدريس قال : أتني علي - رضي الله عنه- برجل قد تنصر؛ فاستتابه فأبي أن يتوب فقتله، وأتي برهط يصلون القبلة وهم زنادقة، وقد قامت بذلك عليهم الشهود العدول؛ فجدوا ، وقالوا : ليس لدينا ديننا إلا الإسلام؛ فقتلهم ولم يستتبهم، ثم قال : أتدرون لما أستتبت هذا النصراني، استتبتّه لأنه أظهر دينه، وأما الزنادقة الذين قامت عليهم البينة وجدوني؛ فإنما قتلتهم لأنهم جدوا وقامت عليهم البينة.^(٤)

والنبي - صل الله عليه وسلم - لم يقتل من جدد زندقته من المنافقين لعدم قيام البينة، ويدل علي ذلك قوله تعالى : **" وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اغْتَرَفُوا بَدُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)"** التوبة

١ شرح العقيدة الواسطية لعبد الرحيم السلمي ٢٧/١٠

٢ الرد علي الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل ٥٨/١

٣ تفسير ابن كثير ٤٧/١

٤ انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ٣٦٠/١

فعلم أن من لم يعترف بذنبه مع قيام البينة عليه لم يستتب، ولهذا قال الإمام أحمد في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد: ليست له توبه إنما التوبة لمن أترف؛ فأما من جحد فلا توبة له. (١)

وقال القاضي أبو يعلى وغيره: " وإذا أترف بالزندقة ثم تاب قبلت توبته لأنه باعترافه يخرج من الزندقة؛ لأن الزنديق هو الذي يستبطن الكفر ولا يظهره فإذا اعترف به ثم تاب خرج عن حده؛ فلهذا قبلنا توبته ولهذا لم يقبل علي - رضي الله عنه - توبة الزندقة لما جحدوا ".

نقول: والزنديق يقتل باتفاق العلماء بعد القدرة عليه إذا قامت عليه البينة أنه زنديق، سواء أقر بذلك أم لم يقر، أو تاب منه أو لم يتب، إلا أن يكون ذلك قبل القدرة عليه؛ لأن المناق لا أظهر إسلامه، وأبطن الكفر ما يدرينا أن توبته صادقه، وقد قال الله عنهم " **أتخذوا أيمانهم جنة** " يعني اتخذوا حلفهم بالله وتصديقهم الظاهر جنة أي تقية يتقون بها القتل؛ فإن كانت توبته صادقه تنفعه عند الله، وإلا كان قتله في الدنيا كفارة له.

وقد أجمع العلماء علي قتل الزنديق الحلج الحسين بن منصور القصة التي ذكرها شيخ الإسلام: أن الحسين بن منصور قتل علي الزندقة التي ثبتت عليه بإقراره وبغير إقراره، الامر الذي ثبت عليه لما يوجب القتل باتفاق المسلمين، ثم ذكر ابن تيمية أن هذا الحسين ابن منصور سافر إلي بلاد الهند، وتعلم أنواعا من السحر، وصنف فيه كتابا، وقد أجمع العلماء أخباره في كتب كثيرة أجمعوا فيها علي ذمه وكفره، والحلج قُتل سنة بضع وثلاثمائة وذكر بعض العلماء في كتبهم غير ابن تيمية أنه قتل عام أربع وثلاثمائة هجرياً، وقدموا به إلي بغداد راكبا علي جمل ينادي عليه، هذا داعي القرامطة وأقام في الحبس مدة وجد من كلامه الكفر والزندقة، واعترف به مثل ذلك أنه ذكر في كتاب له: من فاته الحج فإنه يبني في داره بيتا ويطوف به كما يطوف بالبيت ويتصدق علي ثلاثين بيتما بصدقه ذكرها، وقد أجزاء ذلك عن الحج فقالوا له أنت قلت هذا، قال: نعم فقالوا له من أين لك هذا، قال ذكره الحسن البصري في كتاب الصلاة، فقال القاضي أبو عمر: تكذب يا زنديق أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه، فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ويفتوا بما يجب عليه فاتفقوا علي وجوب قتله.

^١ المصدر السابق ٣٦١/١

قال ابن القيم - رحمه الله : ومما يدل علي أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه قوله تعالى : **" قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ (٥٢) "** التوبة

قال السلف في هذه الآية **" أَوْ بِأَيْدِينَا "** بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم وهو كما قالوا لأن العذاب علي ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنون لا يكون إلا بالقتل؛ فلو قبلت توبتهم بعد ما أظهرت زندقته لم يمكن المؤمنون أن يتربصوا بالزندقة أن يصيبهم الله بأديهم لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم علي ذلك أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم فقط والأدلة علي ذلك كثيرة جدا .^(١)

وذكر شيخ الإسلام الخلف إجمالاً فقال : فأفتي طائفة بأنه يستتاب فلا يقتل، وافتي الأكثرون بأنه يقتل وإن أظهر التوبة؛ فإن كان صادقاً في توبته نفعه ذلك عند الله وقتل في الدنيا، وكان الحد تطهيراً له كما لو تاب الزاني والسارق ونحوهم بعد أن يُرفعوا للإمام؛ فإنه لا بد من إقامه الحد عليهم فإنهم إن كانوا صادقين كان قتلهم كفارة لهم ومن كان كاذباً في التوبة كان قتله عقوبة له.^(٢)

وذكر ابن القيم تأكيداً ما وصل إليه شيخه ابن تيمية : أن الله تعالي سن في المحاربين أنهم إن تابوا من قبل القدرة عليهم قبلت توبتهم، ولا تنفعهم التوبة بعد القدرة عليهم، ومحاربة الزنديق للإسلام بلسانه أعظم من محاربة قاطع الطريق بيده وسنانه؛ فإن فتنة هذا في الأموال والأبدان وفتنة الزنديق في القلوب والإيمان، فهو أولى ألا تقبل توبته بعد القدرة عليه، وهذا بخلاف الكافر الأصلي؛ فإن أمره كان معلوماً، وكان مظهرها لكفره غير كاتم له، والمسلمون قد أخذوا حذرهم منه، وجأهروه بالعداوة والمحاربة، وأيضا فإن الزنديق هذا دأبه دائماً، فلو قبلت توبته لكان تسليطاً له على بقاء نفسه بالزندقة والإلحاد وكلما قدر عليه؛ أظهر الإسلام وعاد إلى ما كان عليه، ولا سيما وقد علم أنه أمن بإظهار الإسلام من القتل، فلا يذعه خوفه من المجاهرة بالزندقة والظعن في الدين ومسبة الله ورسوله؛ فلا ينكف عدوانه عن الإسلام.^(٣)

١ إعلام الموقعين ١٠٧/٣

٢ انظر الفتاوي الكبرى لابن تيمية ٤٨١/٣ وجامع المسائل لابن تيمية ١٩٠/١ ومجموع الفتاوي ١١٠/٣٥

٣ انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين ١٠٥/٣

أحضر الخليفة المهدي واحداً من أولئك الزنادقة، ولما استفصل منه وجدت قرائن ونُقول كثيرة تدل على أنه منافق وليس بمؤمن، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وشاك في أمر الله تعالى وأمر البعث، فعند ذلك أمر بقتله، فلما تحقق أنه مقتول قال: أيها الخليفة، كيف تفعل بأربعة آلاف حديث كذبتها، ونسبتها إلى نبيكم، وبانتنتها، في الناس، قال الخليفة - رحمه الله - تعيش لها نقادها.

أي: إن الله تعالى وفق هذه الأمة أن جعل فيها علماء يميزون الأحاديث ويعرفون الصحيح من السقيم، ويميزون المكذوب من الصادق، وذلك لمعرفتهم بكلام الرسول - صلى الله عليه وسلم، ولمعرفتهم بما كان يدعو إليه وبما تهدف إليه شريعته.

وقد توفي الخليفة المهدي قبل أن يقضي علي الزنادقة القضاء التام، وتولي بعده ابنه الهادي، وممن كان قتلهم الهادي من الزنادقة " يزدان بن بازان " وذلك أنه حج فنظر إلي الناس وهم في الطواف يهرولون قال " ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر " فكتب " العلاء بن الحداد الأعمى " إلي الخليفة يخبره بمقولة الرجل وما عليه من الإلحاد والكفر :

أيا أمين الله في خلقه.... ووارث الكعبة والمنبر .

ماذا تري في رجل كافر.... يشبه الكعبة بالبيدر .

ويجعل الناس إذا ما سعوا.... حمرا تدوس البر والدواسر .

قال الإمام مالك بن أنس : من خرج من الإسلام إلى غيره مثل الزنادقة، وأشباههم، فإن أولئك يقتلون، ولا يستتابون؛ لأنه لا تعرف توبتهم ، وأنهم قد كانوا يسرون الكفر ويعلنون بالإسلام ، فلا أرى أن يستتاب هؤلاء ولا يقبل قولهم .

وقد استدل الإمام مالك علي ذلك بقول النبي - صلي الله عليه وسلم: " من غير دينه فاضربوا عنقه " (١).

وذكر شيخ الإسلام ابن قدامة المقدسي: فضيحة ابن عقيل التي اشتملت علي البدع القبيحة والشنيعة، علي سالكي الطريق الواضحة الصريحة، ولولا أنه قد تاب إلي الله - عز وجل - منها وتصل ورجع عنها واستغفر من جميع ما تكلم به من البدع، أو كتبه بخطه، أو صنفه،

١ موصول عند البخاري من طريق أيوب بن عكرمة عن ابن عباس في باب الجهاد ومرسل عند جميع الرواة.

أو نسب إليه، لعددها في جملة الزنادقة، وألحقناه بالمبتدعة المارقة، ولكنه لما تاب وأتاب، وجب أن تحمل منه هذه البدعة والضلالة على أنها كانت قبل توبته في حال بدعته وزندقته، ثم قد عاد بعد توبته إلى نص السنة والرد على من قال بمقالته الأولى بأحسن كلام وأبلغ نظام، وأجاب على الشبه التي ذكرت بأحسن جواب، وكلامه في ذلك كثير في كتب كبار وصغار وأجزاء مفردة وعندنا من ذلك كثير، ثم ذكر سبب توبة ابن عقيل فقال: وبلغني أن سبب توبته أنه لما ظهرت منه هذه الفضيحة أهدر الشريف أبو جعفر - رحمه الله - تعالى دمه، وأفتى هو وأصحابه بإباحة قتله، وكان ابن عقيل يخفى مخافة القتل، فبينما هو يوماً راكب في سفينة فإذا في السفينة شاب يقول تمنيت لو لقيت هذا الزنديق ابن عقيل حتى أتقرب إلى الله تعالى بقتله وإراقة دمه؛ ففرغ وخرج من السفينة وجاء إلى الشريف أبي جعفر فتاب واستغفر. (١)

وقد رجع ابن عقيل قبل المقدرة عليه لذا قبلت توبته لأنه لو تاب واستغفر بعد المقدرة عليه لم ينفعه ذلك ولم ينجو إلا بالقتل.

وذهب الإمام أحمد رحمه الله من هذه المسألة: أن الزنديق يستتاب ثلاث فإن لم يتب فليس له إلا القتل.

وذهب الشافعي أيضاً وهو ما رواه يوسف بن يحيى البويطي عن الشافعي: "يقبل قوله إذا رجع ولا يقتل"، واحتج الشافعي بقوله تعالى: **"إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ"** (٢) فأمره أن يدع قتلهم لما يظهرون من الإسلام، كذلك الزنديق إذا أظهر الإسلام في هذا الوقت مسلماً والمسلم غير مبدل.

فصل منه في توريثه وتورثه:

وقد اختلف الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته هل يرث ويورث؟

اختلفوا على قولين بعضهم قال بجوازه والبعض قال بعدمه، **والصحيح** أنه يرث ويورث وإن علم في الباطن أنه منافق، كما كان الصحابة علي عهد النبي - صلي الله عليه وسلم، لأن الميراث مبناه علي الموالاتة الظاهرة، لا علي المحبة التي في القلوب؛ فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته، والحكمة إذا كانت خفيه أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من

١ انظر تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة .

٢ المنافقون آية (١)

موالاه المسلمين؛ فقول النبي - صلي الله عليه وسلم - : " لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم" (١) أي لم يرث الكافر من المسلم ولا يرث المسلم من الكافر ، وهذا النوع لم يدخل فيه المنافق وإن كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، بل كانوا يورثون ويرثون، وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين، وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلون ويذكرون ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال سبحانه: " قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) " التوبة

وفي الصحيح قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» (٢) وكانوا يخرجون مع النبي - صلي الله عليه وسلم - في المغازي، كما خرج عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق؛ والحاصل أنهم يرثون ويورثون كما ورث أولاد عبد الله بن أبي أباهم .

فصل منه : في مصير أولاد الزندقة المنافقين .

إذا علم المنافق بنفاقه، وقامت عليه البيعة ، وقتل لزندقته فما مصير أولاده وزوجته ، هل يحكم بإسلامهم، أم بزندقتهم ونفاقهم ؟؟؟

ذكر الإمام الغزالي رحمه الله في فضائح الباطنية : " وحكم الزنديق أيضا حكم المرتد لا يفارقه في شيء أصلاً، وإنما يبقى النظر في أولاد المرتدين، وقد قيل فيهم إنهم أتباع في الردة كأولاد الكفار من أهل الحرب وأهل الذمة، وعلى هذا فإن بلغ طوبى بالإسلام وإلا قتل ولم يرض منه بالجزية ولا الرق، وقيل إنهم كالكفار الأصليين إذ ولدوا على الكفر فإذا بلغوا وآثروا الاستمرار على كفر آبائهم جاز تقريرهم بالجزية وضرب الرق عليهم، وقيل إنه يحكم بإسلامهم لأن المرتد مؤاخذ بعلائق الإسلام فإذا بلغ ساكتا فحكم الإسلام يستمر إلى أن يعرض عليه الإسلام فإن نطق به فذاك، وإن أظهر كفر أبويه عند ذلك حكمنا بردته في الحال، وهذا هو المختار عندنا في صبيان الباطنية فإن علقه من علائق الإسلام كافية للحكم

١ البخاري (٦٧٦٤)

٢ صحيح مسلم (٦٢٢)

بإسلام الصبيان وعلقة الإسلام باقية على كل مرتد فإنه مؤاخذ بأحكام الإسلام في حال رده
وقد قال صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه
ويمجسانه " (١) فيحكم بإسلام هؤلاء ثم إذا بلغوا كشف لهم عن وجه الحق ا هـ

والذي يظهر: أن إسلام هؤلاء الزنادقة المنافقين المرتدين يصل إلي أبنائهم؛ لأننا نأخذ
بالظاهر، أما ما في القلوب فهذا مفوض علمه إلي الله سبحانه وتعالى؛ فإذا كان الأولاد
صغاراً لم يبلغوا الحلم بعد، وحضروا قتل أبيهم المرتد بسبب زندقته ونفاقه، فهذا ينتظر
حتي البلوغ لأن هذا الصغير لم يفهم دعوة الإسلام لصغره ، فإذا بلغ ورأينا عليه من
أجزاء أحكام الإسلام في الظاهر فهذا يؤخذ بإسلامه أما إذا وجدنا خلاف ذلك يستتاب علي
حد قوله تعالى: " وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) " الإسراء

فإن قبل التوبة قبلنا إسلامه، وإن أعرض بعد قيام النبينة وأصر علي ما كان عليه أبوه من
الزندقة فأمره موكل إلي الإمام يحكم عليه بما يري فيه النفع للإسلام والمسلمين .
ولله أعلم.

لماذا لم يقاتل النبي - صلي الله عليه وسلم - زنادقة عصره ؟

زنادقة عصر النبي - صلي الله عليه وسلم- وزمانه هم المنافقون لا غير؛ أما الجهميون،
والسبأيون وغيرهم أصحاب المعتقدات الضالة، فهذه مسميات مستحدثة في غير زمن النبي
- صلي الله عليه وسلم - ، ولم يقتل النبي - صلي الله عليه وسلم - زنادقة عصره المنافقين
لعدم قيام النبينة، كما سبق ذكره من كلام ابن تيمية - رحمه الله .

ويدل علي ذلك قوله تعالى: " وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا
عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)
وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ
عَفُوًّا رَحِيمًا (١٠٢) " التوبة .

• قال الإمام الخطابي : كان رسول الله لا يواجه المنافقين بصريح القول، ولا يسميهم
بأسمائهم، فيقول: فلان منافق، وإنما يشير إليهم بالأمارة المعلومة على سبيل التورية عن

١ انظر البخاري (١٣٥٨) مسند أبي يعلى (٦٣٠٦) سنن البيهقي (١١٩١٧) ابن حبان (١٢٨)

التصريح، وكان حذيفة بن اليمان يقول: إن النفاق إنما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان بعد زمانه كفر ... أو يقول: ولكنه الكفر بعد الإيمان .

ومعني هذا أن المنافقين في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكونوا أسلموا، وإنما كانوا يظهرون الإسلام رياءً ونفاقاً، ويسرون الكفر عقيدة ودياناً، فهم ليسوا بمسلمين ولم يدخلوا الإسلام أصلاً، وأما منافق اليوم فهو كافر مرتد لأنه لما ولد علي الإسلام صار له الإسلام ديناً؛ فإن نفاق وأبطن غيره فهو كافر لذلك يجب قتله .

فمن أسباب عدم ظهور الامر من النبي - صلى الله عليه وسلم -، بقتل هؤلاء الزنادقة المنافقين :

أولاً : مفهوم كلام الإمام الخطابي، وما استشهد به من كلام حذيفة - رضي الله عنه - فمنافق اليوم كافر مرتد يجب قتله مثل أولئك المرتدة الذين حاربهم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - في حرب الردة لما فرقوا بين الصلاة والزكاة، وأحدثوا من البدع ما أحدثوه .

ولا يفهم من كلام حذيفة أنه في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان نفاق واليوم ليس هناك نفاق ، بل مقصد حذيفة : هو **النفاق الأكبر** وهو نفاق الاعتقاد إذا كان النفاق في أصل من أصول الإسلام؛ وإن كان كذلك فهو الكفر ، أن خالف اعتقاده اعتقاد النبي - صلى الله عليه وسلم -

ومن قال لا يوجد اليوم منافق إنما كان النفاق علي عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، فهذا خطأ، بل قد كان حذيفة - رضي الله عنه - بعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن النفاق اليوم أكثر منه علي عهد النبي - صلى الله عليه وسلم -، والمنافق هو الذي يبطن الكفر، ويظهر الإيمان، وهذا موجود في سائر الاعصار بل إذا كان مع رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - وآياته^(١) وسماع كلامه ، يكون المنافقون موجودين ، فيبعده أولي وأحري .

ثانياً : أن المنافقين أحدثوا اليوم مالم يحدثوه في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا بخلق القران، وتعطيل الحدود ، والاحتكام إلي غير كتاب الله، وظهر منهم الجهمية ، والمعطلة ، والمؤولة ، والدهرية ، والثنوية ، والمانوية ، والسبائية ، والبيانية ، والجناحية ، والمنصورية ، والصوفية ، والسلفية ، وشيعة، وخوارج، ومعتزلة ، وغيرهم ممن بدلوا

وحر فوا؛ فلو أنهم ظهروا أيام النبي - صلى الله عليه وسلم- ، لقاتلهم وأمر بقتالهم، ودليل ذلك حرب الردة التي جاءت في عهد الصديق؛ فقد حارب هذه الطوائف التي ظهرت عقب وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - مباشرة

ثالثا : أنهم قالوا : لا إله إلا الله مع عدم قيام البيعة عليهم، وشهدوا بشهادة الحق سواء قالوها بالسنتهم أم بقلوبهم، إلي جانب ما أظهره من أفعال الإسلام وأعماله فما داموا فعلا ذلك؛ فبه يحرم علينا قتالهم ألبيته لأننا نأخذ بالظاهر أما الباطن فموكل علمه إلي الله سبحانه ، ويشهد لذلك حديث أبي سعيد الخدري قال : بعث علي بن أبي طالب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن، بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة بن علاثة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء " قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، مخلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله، فقال: " ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله " قال: ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: " لا، لعله أن يكون يصلي " قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم " قال: ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: " إنه يخرج من ضنؤي هذا قوم يتلون كتاب الله، رطبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " قال: أظنه قال: " لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود " .^١

عدم القدرة عليهم بقيام البيعة : لأنه بعد القدرة علي الزنديق يجب قتله لقيام البيعة ولولاها لم يمكن من القدرة عليه، وهذا بخلاف من قال بغيره لأن البيعة لما قامت علي الزاني والسارق والمحارب لم تنفعهم توبتهم، وقد بقوا علي الإسلام فكيف بمن خرج منه ، وقد قال الله في حق المحارب : **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)** " وهذا بعد القدرة عليهم سواء تاب أم لم يتب، أما قبل القدرة : **"إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ (٣٤)" المائدة .**

١ انظر صحيح مسلم (٧٤٢ / ٢) .

فكل من قال لا إله إلا الله أو أظهر ذلك مع عدم قيام البينة التي تنافي قوله وفعله؛ يحرم علينا قتاله، وهذا قبل القدرة عليه حتي لا يلتبس الأمر، ودليل ذلك ما رواه ابن الزبير، قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التفوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: " لم قتلته؟ " قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، وقتل فلانا وفلانا، وسمى له نفرا، وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أقتلته؟ " قال: نعم، قال: " فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ " قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: " وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ " قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: " كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة " (١)

فإذا توهّم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما عارض أسامة في قتل الرجل بعد القدرة عليه؛ دليل على قبول توبة الزنديق بعد القدرة عليه :

فهذا الكلام مخالف لما ذكرنا؛ لأن الرجل الذي أسره أسامة بن زيد رجل مشرك، وليس بمنافق أظهر الإيمان وأبطن الكفر، بل كان مشرك بنص الحديث معلوم شركه وكفرة؛ لذلك عارض النبي - صلى الله عليه وسلم - أسامة رضي الله عنه في قتله لأنه إذا تاب وشهد بالشهادة ودخل الإسلام صار بذلك مسلماً؛ لكن إذا قامت عليه البينة التي تنافي قول لا إله إلا الله فهذا زنديق منافق لا تقبل توبته حتي بعد القدرة عليه فإن المشركين والكافرين لهم توبة بعد القدرة عليهم ، وقتلهم يعد خطأ كبيراً .

خامساً : خوف النبي - صلى الله عليه وسلم - من الفتنة أن تنبت في قلوب القوم إلي جانب قتاله للكافرين وأعداء الإسلام؛ فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه، ثم يلتبس أمره فلا يُدري أيقتل أعداءه أم يقتل أصحابه، وهو بعينه ما حاول ذو الخويصرة أن يفعله لما قال كلمة النفاق والسخرية: اعدل يا نبي الله ، فقال له نبي الله - صلى الله عليه وسلم - : «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن كنت لا أعدل» ، تم قال: «إن هذا وأصحابه يخرجون فيكم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من

الرمية» . فقال عمر: يا رسول الله ألا أضرب عنقه، فإنه منافق؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «معاذ الله، أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»^(١)

وإلي جانب هذا؛ جاء الامر من الله تعالى بقتالهم وجهادهم والإغلاظ عليهم؛ فحاربهم النبي - صلي الله عليه وسلم - وجاهدهم هو وأصحابه جهادا عظيما وقع به الإغلاظ عليهم، قال سبحانه: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) " التوبة، وكان النبي - صلي الله عليه وسلم - يعفو هو وأصحابه عن المنافقين من قبل ويصبروا علي أذاهم علي حد قوله سبحانه: " وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) " آل عمران، فالذين لم يقتلهم النبي - صلي الله عليه وسلم - أو يحاربهم، كان وقت الامر بالصبر عليهم، قبل الأمر بقتالهم، وإلا عُذ هذا خطأ وإثما من الذين قاتلوهم بعد موته - صلي الله عليه وسلم - .

فصل : أنواع النفاق :

هذا النفاق منه أكبر وأصغر؛ وفيما يلي بيان موجز لهذين النوعين :

أولا : النفاق الأكبر .

هو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، وصورته : أن يقول أمنت بالله وباليوم الآخر، ثم ينكشف النقاب عن سوء طويته؛ فيظهر ما أضمر من سوء " وما هم بمؤمنين " يقول بلسانه ءامنت بالله وملانكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الحقيقة منخلع عن ذلك كله، منسلخ منه، يأمر بالمنكر، وينهي عن المعروف، ينصر الإسلام ظاهرا، وينكره باطنا .

فإن الذي لا يحب دينه ولا يصدق مع ربه ، لا يمكن له أن يصدق مع أحد لهذا لا يمتلك المنافق إلا نفاقا علي نفاقه، وقد ضاق صدره بالمأزق المهين؛ فلا يمضي إلا أن ينكمش مخذولا، ويتوارى مهزوما، وقد عذبه الله بصفاته : من الحرص، والخداع، والكذب، ثم يتمم بكلمات مبهمه تفضح عن غيظه الدفين " يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) " التوبة.

فالمؤمن واضح لا مواربة في سلوكه ولا غموض، ألف مألوف، قريب من النفوس السوية، بعيد عن الخداع والأنانية، يتصرف بميزان الإسلام وأخلاقه؛ فالوضوح والصراحة وكرهية النفاق والملق: من مفاهيم الإسلام الأساسية، ولهذا سُمي هذا النوع من النفاق بنفاق الاعتقاد، ويسمى بالنفاق العلمي، وهو أن يخالف الإنسان اعتقاده اعتقاد النبي - صلي الله عليه وسلم، ولا شك أن هذا النوع مفضي إلي الدرك الأسفل من النار، مخرج من الملة إخراجا كلياً، وصاحب هذا النفاق هو الزنديق الحقيقي الذي تقدم الكلام عنه لهذا لا بد من قتله حال قيام البينة عليه لأنه إذا كان يقول صدقاً ويخفي كذباً؛ فهذا خطره لا يخفي علي أحد ، فكيف إذا كان يظهر إيماناً ويخفي كفراً .

قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله : " النفاق الاكبر هو أن يظهر الانسان الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان علي عهد النبي - صلي الله عليه وسلم، ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار " (١).

ولقد أخبر الله تعالي في قرآنه عن حالهم، وبين أنهم أسوأ أنواع الكفر، ومصيرهم في الآخرة أنهم في الدرك الأسفل من النار، لأنهم زادوا علي كفرهم الكذب والخداع والخيانة وجميع الخصال المذمومة ، لهذا فصل القرآن الكريم الحديث عنهم وعن صفاتهم؛ لكي لا يقع المؤمنون في حبال مكرهم، وأمور غدرهم، وهذه الصفات تتناسب مع حال المنافق إذ أن ظاهر المنافق دائماً خيراً من باطنه .

قال ابن القيم - رحمه الله : فالأكبر اي : النفاق الاكبر- يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله علي بشر جعله رسولا للناس يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه " (٢).

وقد يجتمع الكفر والنفاق في شخص واحد كما اجتمع في أهل الكتاب من اليهود الذين أخبر الله عن حالهم : **" وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) "** البقرة .

١ جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب رحمه الله تعالى، ٢ / ٤٨٠

٢ صفات المنافقين لابن القيم ٢/١ ، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣٥٥/١

قال الامام السعدي : ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: **"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا"** فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالسنتهم، ما ليس في قلوبهم، **"وَإِذَا خَلَا بِعَضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ"** فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: **"أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ"** أي: أنظفرون لهم الإيمان وتخبروهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم .^(١)

لكن الله سبحانه كشف أمرهم، وفضح خططهم، ووبخ غاية التوبيخ صنعهم ؛ فقال مستهزأ بهم : **"أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)"** البقرة .

وقد جمع الإمام الشيخ محمد عبد الوهاب - رحمه الله - صفات المنافقين، ونفاقهم الاعتقادي الأكبر؛ فقال عن هذا النوع من النفاق : **" النفاق الاعتقادي وهو ستة أنواع تكذيب الرسول، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول، أو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية بانتصار دين الرسول - صلي الله عليه وسلم ،فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الاسفل من النار."**^(٢)

فصل منه في : نفاق العلم .

هناك نوع من النفاق العلمي غير المعني الاصطلاحي وهو نفاق العلم الذي ضد الجهل، وصورته أن ينافق الانسان في العلم، فينسبه لغير أهله، أو يتكلم بغير ما اصطاح عليه العلماء، ثم ينسب ذلك لواحد منهم: من الائمة العظماء، والسادة الشرفاء، ليكتسب من وراء ذلك شهرة عظيمة، وسمعة شريفة، وليقولوا عنه قرأ فلان وعلان ووالله ما قرأ ، أو يكتسب من وراء ذلك تخطيء العلماء، وهذه جريمة أن ينسب ما ينافي كلام ابن تيميه مثلا لابن تيميه ليتسبب في خطأ ينسب إليه أنه ارتكبه، ووالله ما ارتكبه، وصاحب هذا النوع علي كبيرة من أعظم الذنوب؛ لأنه يكذب ويعلم كذبه، ويظهر للناس إحسانه وصدقه .

وقد ذكر لي شيخ كنت أقرأ عنده فأخطئت في -إخفاء الميم الساكنة قبل الفاء- فردني فيها ثم قال **" كنا في وقت تعلمنا نقرأ هكذا أي الميم قبل الفاء والواو بالإخفاء؛ حتي قام الشيوخ العلماء بإظهار الحق في هذه المسألة ووصلت إلي الحق بنفسي، وعرفت الصواب، وكنت قبلها إذا سُئلت عن سبب الاخفاء في هذا الموضع فأقول إنه رأي فريق؛ فهناك من يظهرها وهناك من يخفيها وهذا خطأ ، ثم ذكر لي أن هذا نفاق علم .**

١ تيسير الكريم الرحمن للعلامة السعدي ٥٦/١

٢ الرسالة الأولى من مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما ص٩ .

فالواجب علي كل إنسان أن ينسب العلم لأهله، بلا زيادة ولا نقصان لأن من يخالف ذلك فهو مخالف للأمانة العلمية، فتراه يؤول علي ما يريد، والفرصة تسنح له لأن يفرش لكذبه، ويزرع لافتراءه؛ قال أمامي من لا أقدح في أمانته: "إن نسبة العلم لغير أهله كنسبة الولد لغير أبيه " .

فهؤلاء ومثلهم كثيرون، وأكثر ما يكونون الإعلاميين، وكلهم كذاب منافق إلا من رحم ربي، يخفون الحقائق، ويغيرون الوثائق، لإشاعة الأباطيل، والافتراء والتأويل، حتي تنزع الثقة من المسلمين، ويرموا الأئمة والعلماء بالكذب والافتراء.

لقد حاول كثير من الإعلاميين استغلال مناصبهم، ونفوذ كلمتهم؛ ليدمروا الإسلام، ويزعزعو أركانه، ويتربصوا به ليعلنوا انهزامه، إن إعلامي أي أمة يعبر عن ثقافتها وهويتها، وسرعان ما نجد أن هؤلاء الإعلاميين يخرجون عن الحق، حتي أوجعوا الامه بضربها في عقيدتها وهويتها؛ حتي فسدت الأخلاق ، وراج النفاق ، وانقلب العز ذلاً، والعلم جهلاً. وصارت علماء الدين مرمي السهام، ومشحذة الأقلام، بعدما كانوا في منزلة تقرر بها عيون الدين، وتشرح لها صدور المسلمين، عظم الأمر وعم الخطب، وبلغ التحامل على العلماء مبلغاً لم يعهد من قبل، ومن هنا أسأ العالم النظرة للإسلام، حتي قال أحدهم " الإسلام هو الدين الاكثر الذي يساء تفسيره من العالم بسبب نفاق الإعلام " .

فلقد تولي الإعلام كبرة، وتطرق إليه الدخلاء من المنافقين، وصاروا يتداخلون بالدين والعقيدة، ويستنهزؤون بالمتدينين والعلماء، وهم بذلك صاروا سببا لبعد الناس عن دينهم وصلاح حالهم ، ولا بد أن تتوفر جهود الإعلاميين مع الدعاة المصلحين حتي يعم الرشاد والصلاح .

ونفاق العلم، إما أن ينسب العلم لغير أهله، أو لا ينسبه فيخفي أهله، أو ينسب القول لمن لا يقوله مع علمه بصاحب العلم علي كل حال ، وعلي كل حال فله صور كثيرة؛ علي الإنسان أن يحذرهما، ويسأل الله النجاة منه .

ثانيا : النفاق الأصغر .

هذا النوع يسمى بالنفاق العملي؛ لأنه يقع في العبادات والمعاملات، لا في الاعتقاد والنيات، وإذا كان النفاق بهذه الصورة فصاحبه علي كبيرة من أعظم الذنوب، والنفاق العملي هو ترك المحافظة علي أمور الدين سرا، ومراعاتها علانا .

قال ابن رجب - رحمه الله : " النفاق الاصغر هو نفاق العمل، وهو أن يظهر الانسان علانية صالحا، ويبطن ما يخالف ذلك، وقد نبه النبي - صلي الله عليه وسلم - علي هذا النوع بأحاديث كثيرة فقال : " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان "(١)، وقال : " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر "(٢)

فهذه خصال نفاق وصاحبها شديد الشبه بالمنافقين، لكثرة ليس علي كفرهم اعتقادا وباطنا ، وقد يجتمع نفاق العمل مع أصل الإيمان بمعنى أن يجتمع التكاسل عن أداء الصلاة مع جودها؛ فالتكاسل وحده ليس بمخرج من الملة لكن إذا اجتمع التكاسل عن أداء الصلاة مع جودها فهذا إخراج كليا من الملة .

فصل منه في : المؤمن الصادق إذا ظهر عليه خصال النفاق .

قد تجتمع خصال النفاق وخلاله التي تعدت حولها الآيات والاحاديث في المؤمن الصادق؛ فإذا ظهر عليه ذلك فهذا لا يحكم بنفاقه؛ إلا أن يكون ذلك منه علي سبيل الدوام، فيكون دائما كذاب إذا حدث، يخلف دائما إذا وعد، يخون أبدا إذا أتمن، ومعني إذا في الحديث " إذا حدث كذب ... " قد تفيد التكرار في نحو قولك: ما لي أرى زيذا إذا دَخَل عمرؤ قام، وعلامتها أن تحلّ محلها (كلّما) وذلك خاصٌ بما إذا تجرّدت عن الاستقبال وصارت للاستمرار، وقد اجتمعت هذه الصفات في أخوة يوسف - عليه السلام - ولم يحكم بنفاقهم، لأن ذلك لم يكن منهم علي سبيل الدوام، وهذا هو النفاق الذي خافه الصحابة علي أنفسهم .

علق ابن رجب " ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية، خشي بعضهم علي نفسه أن يكون إذا تغير عليه عند سماع الذكر برجوعه إلي الدنيا والانشغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقا " (٣)

ولقد اهتم النبي - صلي الله عليه وسلم - أن يزيل ما وقع في قلب حنظلة الأسدي؛ الأمر الذي جعله من خوفه يحكم علي نفسه بالنفاق، وكان حنظلة من كتّاب رسول الله - صلي الله

١ البخاري ٣٣ من حديث أبي هرير

٢ جامع العلوم والحكم لابن رجب (٤٨١/٢) والحديث رواه البخاري (٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو

٣ جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤٠٨

عليه وسلم، قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت؟ يا حنظلة قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " وما ذاك؟ " قلت: يا رسول الله نكون عندك، نذكرنا بالنار والجنة، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة " ثلاث مرات (١).

وقال ابن أبي مليكة: " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي - صلي الله عليه وسلم - كلهم يخاف النفاق علي نفسه ما منهم أحد يقول أنه علي إيمان جبريل وميكائيل " (٢).

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه علي هذا الاثر: " والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلهم عائشة، واختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة، وأبو هريرة، وعقبة ابن الحارث، فهؤلاء ممن سمع منهم وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي ابن ابي طالب، وسعد ابن أبي وقاص، فكانوا كلهم يخافون النفاق في الأعمال .. "

كان ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول: " إن الرجل ليخرج من منزله ومع دينه، فيرجع إلى منزله وليس معه من دينه شيء، يلقي الرجل فيقول: إنك لذيت وذيت ويلقى الآخر فيقول لأنت وأنت، ولعله لا يخلو منه بشيء، وقد سخط الله تعالى عليه، يعني به التزكية لما لا يعلم، والمدح لمن يستحق الذم، واختلاف قلبه ولسانه، ففي هذا مقت من الله تعالى . "

وفوق هذه المخاوف، سلبُ الإيمان الذي يزول عندما يضيق عليه القلب من النفاق .

قال حذيفة: يأتي على القلب ساعة فيمتلئ نفاقاً حتى لا يكون فيه للإيمان مغرز إبرة، إن صادف الموت ذلك الوقت وكان هو آخر وقت، أليس تخرج روحه على النفاق؟ وكذلك تقلبيات القلوب في معاني الشرك وتلويحات الشك إن وافق وقت الوفاة كان خاتمته عند لقاء مولاه، وإنما سميت الخاتمة لأنها آخر عمله وآخر ساعة من العمر، وخاتم الشيء آخره

١ رواه مسلم (٢٧٥٠)

٢ رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله، ٣٢/١)

ومن ذلك قوله تعالى: "**وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ**"^(١)، أي آخرهم، ومثله: "**حَتَامُهُ مِسْكٌ**"^(٢)، وخاتمه مسك أي آخر الكأس، بدلاً من التقل يكون مسكاً.

ومن المخاوف، خوف قطع المزيد من علم الإيمان مع بقية المعرفة فيه ليكون استدراجاً له بها، كما قال بعض العلماء: إن الله تبارك وتعالى إذا أعطى عبداً معرفة فلم يعامله بها، لم يسلبه تلك المعرفة، ولكن بقاؤها فيه حجة عليه ليحاسبه على قدرها، وإنما يقطع عنه المزيد، وقد يقسى قلبه وتجري عينه، وذلك من النقصان الذي لا يعرفه إلا أهل التمام؛ لأنه يمنعه منه ما ينفعه عنده ويعطيه ما يغترّ به، ويفتنن عند الخلق لأن عين الوجه من الملك للدنيا وعين القلب من الملكوت للآخرة .

وقال مالك ابن دينار: قرأت في التوراة: إذا استكمل العبد النفاق ملك عينيه فيبكي متى شاء .

وقد كانوا يستعيذون بالله عزّ وجلّ من بكاء النفاق وهو أن يفتح للعبد ألوان البكاء ويغلق عنه باب الذل والخشوع.

قال الله عزّ وجلّ: "**وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**"^(٣) وكان السلف أيضاً يقولون: استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل: وما هو؟ قال: " أن تبكي العين والقلب قاس " فلتن يعطي الإنسان رقة القلب في جمود عين، خير من أن يعطي دموع عين في قسوة قلب، ورقة القلب عند أهل القلوب هو خشوعه وخوفه وذلك وانكساره وإخباته، فمن أعطاه الله هذا في قلبه لم يضرّه ما منعه من بكاء عينه، فإن رجح له بفيض العين فهو فضل، ومن أعطاه بكاء العين وحرمه خشوع القلب وذلك وخضوعه وأخباته فهو مكر به .

قال ابن رجب: " كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشند قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر. كما تقدم أنّ دسائس السوء الخلفية توجب سوء الخاتمة»^(٤).

١ الأحزاب ٤٠

٢ المطففين: ٢٦

٣ يوسف ١٦

٤ جامع العلوم والحكم لابن رجب (طبعة بيروت: ١٧٤/١)

مصير المنافق إذا مات علي النفاق.

إذا مات المنافق وهو علي نفاقه الاعتقادي بالمعني الذي ذكرناه من مخالفة الصواب في إتباع سبيل الرشاد، وكتمان الكفر مع إظهار الإسلام، والتملق بالشهادة باللسان، ومخالفة الرسول واتباع الخسران، وكرهية النصر للإسلام، وتدبير المكائد للمسلمين، ومحاربة المسالمين، وغيره، فهذا إن مات علي حالته مات علي غير ملة الإسلام، قال تعالي: **" وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) "** ال عمران .

وقال النبي - صلي الله عليه وسلم - : **" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"**^(١) وإن مات المنافق بنفاقه العملي من البخل، والشح، والكيد، والمكر، والخيانة، وغيره؛ فهذا قد مات علي كبيرة من أكبر الذنوب، إلا أن يخلص نفسه من كل ما حذر الله تعالي منه، وأوعد فيه بالهلاك، فعليهما جميعاً أن يُحَدِّثَا توبة مستوفية الشروط قبل ألا تتفعهم الشفاعةُ بعد القدرة عليهم في الدنيا والآخره .

فصل : منشأ النفاق .

نشأ النفاق بعيداً عن مكة وأهلها، والذي وجهنا إلي هذا المسوغ؛ أنه لم ينزل شيء من القرآن المكي في نعت المنافقين حيث كان المسلمون مستضعفين لا حيلة لهم، وكانت الهيمنة والسيطرة والقدرة والتعذيب في يد كفار مكة فلم يوجد المسوغ الذي من أجله ينفق أهل مكة مستضعفي المسلمين، بل وهذا النفاق لم يكن من صفات العرب حيث أنهم كانوا يواجهون المرء لا يراؤون ولا يتلونون، ولما حضرت وفاة أبي طالب ألح عليه ابن أخيه محمد - صلي الله عليه وسلم - في أن يدخل الإسلام فأبى إلا الكفر ظاهراً .

وذكر ابن كثير - رحمه الله - " وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها

١ أخرجه مسلم برقم (١٧١٨) من حديث عائشة -رضي الله عنها- ، والبخاري «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد» برقم (٢٦٩٧) .

اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج بنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم المدينة - وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان - عليه الصلاة والسلام - وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته، وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعت بدر قال: هذا أمر الله، قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نفاق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة " (١)

وبعد ذلك انتشر النفاق في المدينة ومن حولها من الأعراب، وجاءت التحذيرات منه وتوالت فضائح المنافقين في القرآن والسنة .

وقد مر النفاق في المدينة بمرحلتين، إحداهما وهي الإسرار والتخفي من يوم أن هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها حتى كانت وقعة بدر، والثانية مرحلة الظهور والعلانية : كانت وظهرت في غزوة بدر، قال ابن كثير " فلما كانت وقعت بدر إلي آخر حديثه "

ومن جانب آخر نجد أن النفاق كان خلق اليهود وعبادتهم، فنشأ فيهم وقد ظهر هذا من قبل مع نبي الله موسى - عليه السلام - فكانوا يظهرون متابعتهم لموسى - عليه السلام - مع أنهم كانوا في الباطن يحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتمون الحق وهم يعلمون، وصلة المنافقين بهؤلاء اليهود قويه إذ أنهم تجمعهم صفات جمة تنصب في هدفهم الموحد، وهو الكفر الذي لا يرتضون بشيء سواه، فانظر إلي هاتين الآيتين تجد أن هدف اليهود والمنافقين واحد،

قال تعالى في أهل الكتاب من اليهود : **" وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) "** البقرة .

معني الآية : تمنى كثير من أهل الكتاب أن يرجعوكم بعد إيمانكم كفارًا كما كنتم من قبل تعبدون الأصنام؛ بسبب الحقد الذي امتلأت به نفوسهم من بعد ما تبين لهم صدق نبي الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ، واصفحوا عن جهلهم، حتى يأتي الله بحكمه فيهم بقتالهم (وقد جاء ووقع)، وسيعاقبهم لسوء أفعالهم. إن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء. (١)

وقال الله تعالى في هؤلاء المنافقين : " **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) النساء .**

معني الآية : تمنى المنافقون لكم أيها المؤمنون، لو تنكرون حقيقة ما آمنت به قلوبكم، مثلما أنكروه بقلوبهم، فتكونون معهم في الإنكار سواء، فلا تتخذوا منهم أوصياء لكم، حتى يهاجروا في سبيل الله، برهاناً على صدق إيمانهم، فإن عرضوا عما دعوا إليه، فخذوهم أينما كانوا واقتلوهم، ولا تتخذوا منهم ولياً من دون الله ولا نصيراً تستصرونه به. (٢)

ويجتمع المنافقين مع اليهود في أصل صفات متعددة، من الغدر والخيانة والكذب والفجور والفسق ونقض العهد وغير ذلك من الصفات التي نعلمها، ونعلم خطرها وعظيم وبالها .

فصل : أسباب النفاق .

هناك أسباب عديدة، وأراء كثيرة تبين سبب وجود النفاق؛ وسبب وجوده يرجع إلي أمور عدة نستخلصها فيما يلي :

أولاً : حب الرئاسة والتملك والزعامة، وهذا يظهر إن كان لصاحب النفاق جاه في قومة وكرامة يخشي علي نفسه إن ظهر غير ما يراي به أن يتفرق الناس عنه ويقومون ضده، وهذا ما حدث مع عبد الله ابن أبي سلول كما علمنا من كلام ابن كثير - رحمه الله :
"وكان عبد الله ابن أبي سلول رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في

١ التفسير الميسر ١٧/١

٢ المصدر السابق ٩٢/١

الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله .

ومن هنا نافق عبد الله بن أبي، بل وكان زعيم المنافقين، وسبب نفاقه هو حب الرئاسة والزعامة؛ فأعلن ظهور إسلامه حتي يتقرب من الذي فقده بعد وجود النبي - صلي الله عليه وسلم - سيديا في المدينة وحاكما عليها " **يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)**" **ال عمران** ، يقولون هل لنا اليوم من رأي أو مشوره أو عمل نظهر به، قل إن الامر كله لله، وكان سبب نفاقهم قولهم لو كان لنا من الامر من شيء ما قتلنا هاهنا.

وقد أساء عبد الله ابن أبي يوما حديثا مع رسول الله، وقد نزل يدعوهم إلي عبادة الله، وكان ذلك قبل ظهور إسلام عبد الله ابن سلول كذبا ونفاقا؛ فركب النبي - صلي الله عليه وسلم - دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - " **يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب؟** (يريد عبد الله بن أبي)، **قال كذا وكذا**، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله! اعف عنه واصفح، فو الذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، وقد اصطلح أهل هذه البحيرة -أي: البلدة، وهي يثرب التي صارت المدينة و طيبة - على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، أي: يتوجوا عبد الله بن أبي ملكاً عليهم - فلما أبى الله ذلك، فانت الفرصة على عبد الله بن أبي وفاته الملك للإسلام الذي جاء- فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شرق بذلك -أي: غص به وكرهه - فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم " ^(١).

ثانيا : حب النَّفْس : ويندرج تحت هذا كل ما يمد للنَّفس بِصِلَةٍ، من المال والنساء والقصور وغير ذلك، فينافق من أجل ما ترغب فيه نفسه، وكذلك الثناء المبالغ فيه من الناس خاصة من أهل الرأي والمشورة؛ فيرائي وينافق من أجل ذلك كله .

قال صاحب المنار في قوله تعالى : " **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ..** " : ذهب بعض المفسرين إلي أن الظرف " **في الحياة الدنيا** " متعلق بالقول قبله ؛ أي: يعجبك قوله إذا تكلم في شئون الحياة الدنيا وأحوالها، وطرق جمع المال وإحراز الجاه فيها ؛ لأن

صاحبها قد ملك عليه أمره، والميل إلى لذاتها وشهواتها قد استحوذ على قلبه، وصار هو المُصْرَف لشعوره ولبه.^(١)

قال تعالى : " **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) "** **التوبة .**

وقد كان هذا في غزوة تبوك عندما رأي المنافقون شدة الحر وبعد المسافة؛ تخلفوا عن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فأنزل الله فيهم هذه الآية موبخا لهم، مبينا أن السفر لو كان قريبا سهلا، والغنيمة قريبة متناولة حاضرة، لخرجوا معك؛ أما قولهم لما جاءوا يعتذرون إلي رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فهو مجرد كذب لأنهم كانوا مستضعفين، ولما رجع المسلمون من غزوة بني المصطلق، وقد سأل المنافقون رسول الله - صلي الله عليه وسلم - السماح لهم بالخروج معه إلي غزوة خيبر لما أملو من الغنائم لكن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - لم يأذن لهم لأن غنائم خيبر كانت خاصة لمن ذهب مع رسول الله - صلي الله عليه وسلم - إلي مكة معتمرا، وكان المنافقون حينئذ قد تخلفوا عنه، وقد وعد الله المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية - فتح خيبر- وجعل الله غنائمها لمن شهد الحديبية عوضا من غنائم أهل مكة؛ فإنهم انصرفوا علي صلح ولم يصيبوا منهم شيئا؛ فلما رأي المنافقون أن الله وعد رسوله مغنم كثيرة عجلت له منها خيبر، طلب المنافقون الخروج، قال تعالى : **" سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوعًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) "النسج .**

فالمخلفون، هم الذين تخلفوا في الحديبية، سيقولون إذا انطلقتم إلي مغنم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا، وهذا بعد أن تخلفوا وقت محاربة الأعداء فأمر الله رسوله - صلي الله عليه وسلم- ألا يؤذن لهم عقابا لهم من جنس ذنبهم، ومعني **" كذلك قال الله من قبل"** أي أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية.

ثالثا : الخوف علي النفس من الهلاك وغيره .

١ تفسير المنار ١٩٧.

وهذا السبب من الأولي أن يتقدم جميع الاسباب؛ لأن الإنسان أكثر ما يخاف علي نفسه، وخوفه علي نفسه يفوق حبه لها، فإذا كان هذا حال الانسان مع نفسه، فمن ثم لا يُتَعجب لمن ينافق من أجلها، وقد ظهر هذا السبب واضحا في انتصار المسلمين في بدر، وأصبح للمسلمين قوة تهاب فظهر النفاق، وازداد عديد المنافقين، واشتد حَلْفهم وكثرت أيمانهم بالله الكاذبة، فجعلوا أيمانهم التي اقسما بها سترة ووقاية لهم من المؤاخذة بالعذاب، وقد منعوا أنفسهم عن طريق الله المستقيم، وذلك لأنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن خُتِمَ علي قلوبهم ، كما قال تعالى : **"وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةً يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) "** النساء

وظهر هذا من عبد الله بن أبي لما أعلن دخوله في الإسلام في غزوة بدر خوفا علي نفسه أن يصيبه ما سيصيب المشركين في بدر، كما قال الإمام ابن كثير - رحمه الله : " فلما كانت وقعت بدر قال: هذا أمر الله قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب؛ فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة، ومن حولها من الأعراب؛ فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه، رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة " .
رابعا : الجهل .

إن الجهل بطبيعة هذه الفئة وما هم عليه من نفاق وكفر؛ يدفع صاحبة إلي أن يدخل دائرة النفاق من أوسع أبوابها؛ فقد أنزل الله تعالى بيانا شافيا من صفاتهم، وحذر الله تعالى الناس منهم، والجاهل بطبيعتهم جاهل بوحى الله وشرعه .

فأهل النفاق أصحاب علم وحجج، وتنمق وتملق، ومن السهل أن يقع هذا المسكين الجاهل فريسة لنفاقهم، وهو يري الحق في فعله، والصواب في سعيه، ثم يكون جهله قاضيا بشقائه في الدنيا والآخرة، وأنت تري الكثير من الشباب المسلم قد استغلوه واستعملوه؛ فبدلوا شريعته، وحرفوا عقيدته، وضيعوا شبابه، ودسوا السم في فكره، فوقع بين أيديهم مسلسل العنق، محبوس الفكر، محروم الرأي، شديد التعصب .
 وما نفع الدراهم مع جهول ... يُباع بدرهم وقت النفاق .

قال ابن القيم : يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد .

فالإنسان لولم ينتبه لعداوتهم الحانقة علي الإسلام وأهله؛ لوقع سقطا بدينه وأخلاقه في قبضتهم، يظن بهم غاية الصلاح وإنما هم غاية الفساد .

فصل : شعب النفاق .

إن هذا النفاق لا يزال يتوحش ويغطي؛ حتي إن من خطره أنه يتفرق ويتشعب؛ فإذا أصاب القلب لا يدع فيه موضع قطرة دم ولا عرق إلا أصابه من النفاق ما أصابه، وإذا أصاب عمل المرء أصاب جميع الأعمال عملا يتلو الآخر؛ حتي يتوب الإنسان إلي ربه ويظهر بالإيمان قلبه، فإن كل علامة أو خصلة من خصال النفاق لها شعب منه، فالكذب له شعب من النفاق، فإذا كذب الإنسان أول مرة فإنه يشعر بذنبه حتي إن ذنبه ليصير في عينه مثل الجبل، فإذا استمر الإنسان علي الكذب، وكان ذلك منه علي سبيل الدوام ازدادت هذه الشعب في قلبه، وتفرق الكذب في جميع الاحياء والأنحاء؛ حتي يتمادى به الكذب إلي أن يكتب عند الله كذابا، ويدل علي تشعب النفاق قول النبي - صلي الله عليه وسلم : " ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعه "

وقال النبي - صلي الله عليه وسلم : «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات علي شعبة من نفاق»^(١)

وفي حديث عليّ كرم الله وجهه: أنّ الإيمان ليبدو لمعة بيضاء؛ فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيض القلب كله، وأنّ النفاق ليبدو نكتة سوداء، فإذا انتهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب فيطبع عليه فذلك الختم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله : وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب ، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة .^(٢)

١ رواه مسلم ١٩١٠- من حديث أبي هريرة .

٢ مجموع الفتاوى، ٤٣٣/٢٨

فالإِنسان إن كان فيه شعبة من نفاق الأعمال، فله قسط من المقت حتي يدعها ويتوب منها، قبل أن لا يَسْوَدَ القلب ويصر الإيمان تحت الحجاب ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وعندها ينكس أعلاه أسفله إذا استكمل سواده، فحينئذ مرد علي النفاق، فألمس فيه واطمأن به، بعد أن جعل النفاق عادة ومكسبًا، والتملق خديعة وملعبًا . نسأل العفو والعافية .

فيلزم علي السلمين سد الذرائع الموصلة إلى النفاق، من الكذب والخيانة وإخلاف الوعد والمداهنة ونحو ذلك، وقد بين سبحانه أن الإصرار على هذه المعاصي يُقوي أوصر النفاق في القلب؛ فقال تعالى: **"فَأَعْقِبُهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) " التوبة .**

حكم الصلاة علي المنافق .

إذا عرف أن الميت منافق فهل يصلى عليه؟

لا يصلى عليه؛ لقوله تعالى: **" وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا "** إذا كان نفاقه ظاهرًا، وقد صلى النبي - صلى الله عليه وسلم - علي عبد الله ابن سلول، وذلك قبل نزول النص بتحريم الصلاة عليهم، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما - قال: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما خيرني الله، فقال: **" اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً " التوبة** ، وسأزيده علي السبعين، قال: إنه منافق؛ فصلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأنزل الله: **" وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) " التوبة . (١)**

أما إذا كان ذلك مجرد تهمة فإنه يُصلى عليه؛ لأن الأصل وجوب الصلاة على الميت المسلم؛ فلا يترك الواجب بالشك، وأما الصلاة على أهل البدع إذا تركها أهل العلم من باب

التنفير من عملهم فهو مناسب إذا كانت بدعتهم لا توجب تكفيرهم، أما إن كانت بدعتهم مكفرة كبدعة الخوارج والمعتزلة والجهمية فلا يصلى عليهم.

حكم توريث المنافق .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: " إن المنافقين الذين قالوا: " **أَمْنَا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** " هم في الظاهر مؤمنون يصلُّون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويتوارثونهم، كما كان المنافقون على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولم يحكم النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر، لا في مناكحتهم، ولا موارثتهم، ولا نحو ذلك، بل لما مات عبد الله بن أبي سلول - وهو من أشهر الناس بالنفاق - ورثه ابنه عبد الله، وهو من خيار المؤمنين، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون، وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين" (١)

فعن عبد الله بن عتبة قال سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، يقول: " إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا، أمناه، وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة " (٢)

هجرة أهل النفاق والبدع.

إن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة على مر الأوقات ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق، وإنه - عليه الصلاة والسلام - لما خاف على كعب بن مالك وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن غزوة تبوك أمر بهجرانهم خمسين يوما، وقد هجر كعب نساءه شهرا، وقد منع النبي - صلى الله عليه وسلم - الكلام مع الثلاثة الذين خلفوا بالمدينة حين خاف عليهم النفاق.

١ مجموع الفتاوي لابن تيمية ٢١٠/٧

٢ صحيح البخاري ٢٦٤١

لكننا اليوم نعيش في عصر راجت فيه أسواق النفاق، وكثر فيه عديد المنافقين، لأن الناس أفلسوا من التقوى، وأقفرت قلوبهم من الإيمان، فهم يتعاملون بالنفاق لا يتأمرون بمعروف ولا يتناهون عن منكر، بل لا يبالون بفعلهم، تضحية بدينهم في سبيل دنياهم ، والدواء من مرضهم أن لا نفاقهم ولا نعشى مجالسهم، وإذا اضطرونا للقائهم والاجتماع بهم؛ فلا نسمع لقولهم ولا نغتر بتملقهم، وإذا اضطرونا إلى سماع قولهم؛ فلا نقابل نفاقهم بنفاق، وملقهم بملق؛ فإن ذلك لا يقطع الشر، ولا يحسم الداء، وإنما يجب أن نقابل نفاقهم بالصرامة، وملقهم بالتأنيب، كي ينتهوا ويرتدعوا؛ فما عاش الشر إلا في بيئة النفاق، ولا كثر الفساد والمنكر إلا حيث يُسكت عن الفساد ويُمسك عن تغيير المنكر ، قال سبحانه : **" وَقد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) " النساء .**

وقد أمر عمر - رضي الله عنه - المسلمين بهجر صبيغ بن عسل التميمي لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب إلى أن مضى عليه حول، وتبين صدقه في التوبة فأمر المسلمين بمراجعته ، وكانت هذه بدعته ؛ أي الصبيغ بن عسل -رحمه الله- .

وقال الشيخ الألباني - رحمه الله - معلقا علي حديث عبد الله بن مغفل " نهى رسول الله - صلي الله عليه وسلم - عن الخذف^(١) " ، وأصل الحديث : عن أبي سعيد عبد الله بن مغفل - رضي الله عنه - قال: نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الخذف ، وقال: " إنه لا يقتل الصيد، ولا يترك العدو، وإنه يفتق العيين، ويكسر السن"^(٢) ، وفي رواية : أن قريبا لابن مغفل خذف فنهاه وقال : أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - نهى عن الخذف... ثم عاد فقال : أحدثك أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - نهى عنه، ثم عدت تخذف ! لا أكلمك أبد .

قال الشيخ الألباني في تعليقه : " في الحديث جواز هجرة أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرهم أبد "^(٣)

١ وهو رمي الحصى بالسبابة والإبهام ، أو أخذ حصاة أو نواة بين السبابتين ويرمى بها .

٢ متفق عليه.

٣ انظر قاموس البدع ص٥٤



المسكن الثاني :

خطر المنافقين علي

الامة الاسلامية .



فصل في : خطر المنافقين .

ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - عظيم خطرهم، وعموم البلوي بهم ؛ فقال: " فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لانهم منتسبون إليه وإلي نصرته وموالاته ، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد فله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه؟، وكم من علم له قد طمسوه؟، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟، وكم عموا عيون موارد بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها " (١).

إن ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه؛ هو مختصر لمجمل ما ذكره الله تعالى في قرآنه "**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**" (٦٧) **التوبة**.

أي جرم يفهم بعد هذا؛ إنهم أعداء الإسلام الذين حاربوه، وأهدروا حقوقه، وأحدثوا فيه ما أحدثوه، من ترويع العباد، ومحاربة المسالمين بالسلاح والعتاد، وهتك أسرار البلاد، ورفع رايات البغي والفساد، وهدم راية العدل والرشاد، فإن حياتهم ظلمات ومكائد، وفلسفات يقصد بها إفساد العقائد، وخطط تهدف إلي نصب المصائد، قد انتمروا بالمسلمين والإسلام، والنبي وصحابته الكرام، وبنوا مسجدا ضارا، ومكروا بالرسول لقتله واغتياله، وضربوا الإسلام بسهام الكيد لإضعاف تياره، وحرف مساره، لكن الله تعالى رد كيدهم، وكشف مخططاتهم، وجاء نصر الله وهم كارهون .

قال أبو أيوب الانصاري : " ليأتين على الرجل أحييين وما في جلده موضع إبرة من نفاق وإنه ليأتي عليه أحييين وما في قلبه موضع إبرة من إيمان " .

لهذا كثر تحذير الإسلام من النفاق، واعتبر عداء المنافقين هو العداء الأول للإسلام وأهله، كما قال تعالى "**هم العدو فاحذرهم**" (٢) وهذا واقع تثبته المشاهد يوما بعد يوم؛ فإن نكبة الأمة بالمنافقين تسبق كل النكبات، ومصيبتهم فيهم أيما مصيبة، فمنذ أن فتح ابن سلول باب النفاق صار في طريقه أفواج من المنافقين رافعين رايتهم، وامتد هذا السرب إلي يومنا هذا ، وقد لا تكاد العين تخطئ ملامح النفاق الظاهر في هذا العصر، لقد أصبح النفاق فيه أشد من

١ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٣٥٥/١

٢ المنافقون (٤)

النفاق الذي كان علي عهد النبي - صلي الله عليه وسلم - كما قال حذيفة - رضي الله عنه : "المنافقون الذين منكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا علي عهد رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قلنا : وكيف، قال أولئك كانوا يخفون نفاقهم، وهؤلاء أعلنوه" (١)

وها نحن اليوم نفجع عدة مرات لما يحدث في بلدنا الحبيبة مصر، من الذين يتظاهرون بالصلاح والإصلاح، وما تخفي صدورهم أكبر من العداء الظاهر للإسلام والمسلمين، يريدون مصر أن تكون أسوأ حالا من سوريا وفلسطين - نسأل الله النصر لسائر بلاد المسلمين - إننا نري جولة جديدة للمنافقين، يتهيؤون فيها لقهرة هذه الأمة وإذلالها أمام عدوها، يريدون بذلك وصولا إلي الكرسي الذي لا مطلب غيره، ولا أمل سواه، فمنهم من وصل ومنهم من يحارب للوصول، وهذا ليس بجديد علي هؤلاء المنافقين؛ فإن النفاق السياسي هو أصل دعوتهم، ومنهج كبيرهم عبد الله بن سلول؛ فإنه نفاق بكل ما تشمل الكلمة من أنواع النفاق، من أجل أن يحتل مكانة علي رأس الأوس والخزرج، وكاد أن يصل إلي مطلبه بالفعل لولا ظهور النبي - صلي الله عليه وسلم - قائدا لهم، وحاكما عليهم، إنه الكرسي الذي يكاد يُعبد، ويُركع له ويُسجد، ونجد هذا بوضوح عند غياب تحكيم الشريعة الإسلامية، وغياب ضوابط تحكيم من يصلح ومن لا يصلح لقيادة المسلمين؛ بسطت الفرصة زراعيها لكل من أراد أن يطمع في الولاية علي المسلمين، بل خلا الجو تماما لكل منافق سافل وزنديق مقاتل، وهذا النوع من النفاق هو النفاق السياسي وهو أشد صور النفاق لأنه يصير بخطواته نحو الزعامة والقيادة، وإذا مُلك هؤلاء المنافقين وشغلوا هذه المناصب الخطيرة فلا نصر لأمة مثل هذه تعيش في غضب الله وسخطه .

إن هؤلاء المنافقين السياسيين، والجواسيس الخائنين، والعلمانيين المضلين، والإعلاميين الكذابين، يريدون هذه الزعامة حتي يتمكنوا أسباب الهزيمة؛ فتسقط مصر لا حول ولا قوة، لذا فعلي كل إنسان علم أن حب الوطن من الإيمان، عليه أن يحاربهم ويجاهدهم، قال الشيخ محمد بن سعيد رسلان : " وما دام حب الوطن من الإيمان فيحرم أن يُدفع به إلي الفوضى؛ فتضيع منه مكاسب الإسلام فيه عبر القرون، وما دام الوطن إسلاميا فيجب الدفاع عنه، ويحرم الإضرار به " .

علي كل إنسان يعيش علي تراب هذا الوطن أن يحارب حتي لا يدخل للإسلام من قبله، وأن يسد ثغر الإسلام بنفسه، ويتعرض لهؤلاء المنافقين باللسان أو باليد أو السيف، ولا يخفي أن

١ مصنف ابن أبي شيبة ٧ / ٤٨١ ، السنة لابي بكر بن الخلال ٧١/٥

من غلب علي قلبه حب الجاه صار مقصورَ الهم علي مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم، ولا يزال في أفعاله وأفعاله ملتفا إلي ما يعظم منزلته عندهم، ويفتنص به قلوبهم، وهذا جذر النفاق، وأصل الفساد، لأن هذا النفاق يحمل صاحبه علي تقديم رضا الخلق علي رضا الرب، مما يؤدي إلي رقه في الدين، ورقعة في القلب، فتجده إذا رُشح أو عد، وإذ ملك أخلف، وإن صلي بالناس تلاعب، وحول الدعاء والقنوت إلي موعظة، وتكلف البكاء... إلي غيره ، نسأل الله العافية .

والله إنها لفتنة عظيمة، وبلية كبيرة فشت في هذه الأمة وانتشرت، لكن شاءت حكمة الله سبحانه أن يعجل في كل قوم بلية؛ فكانت بلية هذه الأمة بمن يخدعهم من المنافقين ويفتنهم، وما كان ذلك إلا ليعلم المجاهدون والصابرون، ويميز الله الخبيث من الطيب " **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) " محمد.**

إن النفاق اليوم أصبح أشد خطر علي الإسلام وأهله من نفاق الأمس، فقد أصبح اليوم صرحاً ممرد، وقواعد ترسخ، وقلاع تشيد، أصبح للنفاق دولة ذات كيان وأركان، وأحلاف وتكتلات، ومعسكر قوة وسلطان، ومما يبين عظيم خطرهم أنهم كُتِر منتشرون في بقاع الأرض، قال الحسن البصري : لولا المنافقين لاستوحشتم في الطرقات .

وسمع حذيفة بن اليمان رجلاً يقول : اللهم أهلك المنافقين فقال يا بن أخي : " لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قله السالك " .

تحذير القرآن الكريم من أساليبيهم .

لقد حكي لنا القرآن الكريم عن نماذج مريية من تحركات المنافقين داخل الصف الإسلامي في بداية تكوين الدولة الإسلامية، وفي هذا الوقت كان النبي - عليه الصلاة والسلام - لا يعلم رموزهم ولا تحركاتهم، ومن بعض أهل المدينة الذين مردوا علي النفاق، وقد أحدث هؤلاء المنافقين ما أحدثوه داخل الصف الإسلامي ظانين أن الله تعالى لم يكشف أمرهم، وهو سبحانه لا تخفي عليه خافية، ومن ثمَّ فقد بين الله تعالى لنبيه - صلي الله عليه وسلم - أمر هؤلاء المنافقين ليكون منهم علي حذر؛ فقال سبحانه " **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)** " الانفال .

ولقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن النفاق والمنافقين، وأنهم شر أنواع الشرك، وبليه الإسلام بهم أعظم من بليته بالكفار المجاهرين، لهذا قال تعالى في حقهم " **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)** " المنافقون ، والحصر في هذه الآية لم يقصد منه أنه لا عدو غيرهم، بل هو حصر غير مستوفٍ لأجزاء العداوة إنما أستوفي بعضها، وخصهم سبحانه بالحصر علي سبيل تقدم الأولوية أي هم العدو الأكبر والأعظم والأشد عداوة فاحذروهم .

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله : " فهؤلاء هم العدو علي الحقيقة لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع مكر يزعم أنه ولي، وهم العدو المبين " (١) ولكننا لا نعرف هذا التلون وهذا الخداع؛ فظاهرنا كباطننا ما نعتقده ديانة نقوله علي الملأ، ونقيم عليه الحجج والبراهين، أما هؤلاء المنافقين " **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)** " الروم .

قال الحسن البصري : " والله لبلغ من أدهم بدنياه أن يقلب الدرهم علي ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلي " (٢)

فالحسن البصري رحمه الله لم يقصد المنافقين فحسب، بل جميع من يشتغل بدنياه وينسي آخرته، وهذا في الاصل أصل المنافقين .

١ تفسير السعدي ١/٨٦٤

٢ تفسير ابن كثير ٣/٤١١

لقد حذر القرآن الكريم من صفاتهم في آيات كثيرة؛ حتي بلغ هذا الأمر مبلغاً من سبع عشر سورة من ثلاثين سورة مدنية؛ قال ابن القيم - رحمه الله : " كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور " (١) ، وقال أيضاً : " وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم في القرآن ، وجلى لعباده أمورهم ، ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله " (٢)

ولقد حذر النبي - صلي الله عليه وسلم - منهم وأنذر من سلوكهم، والوقوع في شعبهم، وازداد الصحابة من هذا الأمر فكانوا أشد الناس خوفاً علي أنفسهم من النفاق، فكان أبو الدرداء - رضي الله عنه - إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ بالله من النفاق ويكثر التعوذ منه؛ فقال أحدهم : ومالك يا أبا الدرداء والنفاق . قال : " دعنا عنك فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه " .

قال ابن القيم - رحمه الله : " وبحسب إيمان العبد ومعرفته، يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة - الزنادقة : المنافقين- ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسليفيها علي أنفسهم أن يكونوا منهم؛ فكان عمر يقول لحذيفة ناشدتك الله هل سماني رسول الله - صلي الله عليه وسلم - مع القوم فيقول لا ولا أزكي بعدك أحد " (٣) يعني لا أفتح بعدك هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك .

وسئل الإمام أحمد ما تقول فيمن لا يخاف علي نفسه النفاق قال : " ومن يأمن علي نفسه النفاق " .

١ صفات المنافقين لابن القيم ٢٠/١، مدارج السالكين له ٣٦٤/١

٢ مدارج السالكين ٣٥٥/١

٣ طريق الهجرتين وباب السعادتين ٤٠٩/١

إن الآيات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في خطر المنافقين وشرهم، أكثر عددا من الآيات التي جاءت في وصفهم وصفاتهم، ففي ختام سورة براءة أو السورة الفاضحة أنزل الله تعالى علي النبي - صلي الله عليه وسلم - ما كشف فيه المنافقين، وفضح خبايا أسرارهم، وقد نزلت هذه السورة علي النبي - صلي الله عليه وسلم - في السنة التاسعة من الهجرة في موسم الحج، وكان النبي - صلي الله عليه وسلم - يعرف قبل خصومه من الكافرين والمشركين وأهل اليهود الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، ولم يكن له - صلي الله عليه وسلم - سابق المعرفة بهؤلاء المنافقين اللهم إلا القليل من صفاتهم، حتي أخبر الله تعالى نبيه - صلي الله عليه وسلم - بأوصافهم، وأنزل عليه بيانا عاجلا بأهم أخبارهم، وبين له تعالى ما يتلونون عليه من بواطن أحوالهم، وأصول عقائدهم، قال تعالى " **لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْتِنَّا لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) "**

التوبة .

ذكر الإمام ابن كثير - رحمه الله : " يقول تعالى محرضا لنبيه - عليه الصلاة والسلام - على المنافقين: " **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور** " أي: لقد عملوا فكرهم وأجالوا آراءهم، في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك، وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربتة يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهرا ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ؛ ولهذا قال تعالى: " **حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** " (١)

فهؤلاء المنافقون ومن شابههم، وممن ينتمي إلي الصف النفاقي؛ يسارعون جهدا لإطفاء المعالم التي يدعوا إليها الإسلام، وينطلق من خلالها المسلمون، سواء كان ذلك من الجانب الاجتماعي للإسلام، أم من الجانب النفسي، أم من أي جانب منه يمكن أن يسقط جهوده، ويقلل طاقته، ولقد عرف النبي - صلي الله عليه وسلم - أسلوب المنافقين، وعلي رأسهم عبد الله بن أبي في إسقاط مكانة النبي - صلي الله عليه وسلم - وذلك باتهام عرض السيدة الطاهرة المبرأة عائشة - رضي الله عنها - ولكنهم خابوا وخسروا في إثبات ذلك، وإن كانوا

أثبتوه ساعة؛ فإنما الحق إلي قيام الساعة فأنزل الله تعالى براءتها في سورة، وأي سورة؟
إنها سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون، وقد فضحهم الله في أولها وأخرها، قال سبحانه: **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)** "النور"، إلي أخر الآيات التي نزلت في شأن السيدة عائشة حينما رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوا من الكذب البحت، الفرية التي غار لها الله عز وجل ولنبيه - صلي الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسوله - صلي الله عليه وسلم - .

وهذا الموقف الذي حدث من المنافقين تجاه السيدة عائشة أم المؤمنين، إنما يكشف عن غيظهم الدفين؛ فما يكون منهم إلا العض علي الأنامل، وتدبير المكائد للإسلام بالكامل حتي يشمل ذلك الإسلام والمسلمين؛ فيصيبهم هزل زامل، وهزم قاحل، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولقد قادهم هذا الغيظ إلي إثارة البلبلة في الصف الإسلامي، وإيجاد حلة من الانهزامية النفسية لدي المسلمين مما يولد عدم الثقة بين المسلمين حتي يقع بذلك الفرقة؛ فتتعطل حركة التنمية، ومسيرة الدعوة، وتسقط بعدها قيادة الرسول - صلي الله عليه وسلم - لكن هيهات هيهات .

فيا أمة الإسلام جميعها: إن المنافقين لا يباليون بالهزيمة بل إنهم يحاولون حتي النصر، ولا يمكن الخلاص منهم حتي يمكن الخلاص من هدفهم؛ لأن الارواح إذا صعدت، والابدان دفنت فالأفكار متوارثة، وهذا التقدم الرهيب الذي وصل إليه عصرنا إنما هو جهوداً أشارت إليها أفكار من سبقونا، يقول الشيخ الفوزان: "الهدف في الفكرة أكثر منه في الشخص"، فلا يزال هؤلاء المنافقون يرفعون راية عبد الله بن سلول التي رفعها من زمن لا يعلمه إلا الله، لأن هدف المنافقين واحد، وهذا الصنف من الناس خطرهم علي الإسلام عظيم؛ لأن العداوة الصريحة خطرنا أهدون من المستترة الخفية؛ لذلك كان الكفر أيسر شأنه من النفاق، وهدف المنافقين هو قول الحق سبحانه وتعالى: "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ"، وقد رد الله تعالى عليهم في نفس الآية دليل علي سرعة رد الله كيدهم "وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)" التوبة

ألا فليعلم الذين يخادعون الله أن الله خادعهم، وقد خادعهم الله قبل أن يخادعوه فأنزل صفاتهم، وحذر رسوله والمؤمنين منهم .

ولقد ساءنا هذا النفاق الذي لا يزال يكيل أمور الإسلام بمكاييل الغل والكذب والحقد والفجور ، وعلي الفرض أننا اتبعنا هؤلاء المنافقين علي ما يرون عليه أنفسهم من الصلاح والإصلاح، فهل يدعي إلي الصدق بالكذب؟، وهل يدعي إلي السلم بالحرب؟، وهل من أخلاق الداعية أن يكون كذابا ومخادعا؟.

لما ظهر الإسلام يدعوا إلي الأخلاق الحسنة، والمعاملة الطيبة، والسلم وغيره، ظهر هؤلاء المنافقون يدبرون دوائر الكيد للنيل من الإسلام وأهله، وإبطال دعوته ، والقضاء علي متقنيه، لكن لماذا يفعلون ذلك؟ إنهم يفعلونه لشيئين الأول : أنهم يمتلكون في عقائدهم ومعاملتهم أخلاق تسموا روحها ويرتفع شأنها عن الإسلام وأهله، وهم ليسوا أهلا لذلك بل مجرد تقديرات، وهم في هذه الحالة مخطئون تماما لأنهم دعوا إلي هذه الاخلاق بالغل والكذب والحقد والفجور وغيره، **والشيء الثاني** : أنهم بلا أخلاق ولا يعرفون عنها شيء وفي هذه الحالة أثبتنا عليهم ما ارتكبه من خطأ وفحش، لأنهم خالفوا الفطرة الإنسانية والكونية والقرآنية، فلا تجد في أي عقيدة أو عرف، من يذم الصدق ويتعامل بالكذب، من يدعوا إلي السلم بالحرب، وهم عندما كرهوا الإسلام لم يكرهوه لنفسه إذ أن الإسلام اسم بلا معني لا قيمة له، فلا يكره ولا يحب، بل إنهم كرهوا دعوة الإسلام التي تميزه، وتجعل له اسم ومعني، ودعوته هي الصدق والأمانة والعفاف والسيتر وغير ذلك، فلما كرهوا دعوته كرهوا ما أفصحت عنه هذه الفطرة، وقد أخذوا شيئا من هذه الاخلاق يتعاملون به حيناً، ويدعونهم أخراً، وتركوا باقي الاخلاق إلي أن يحتاجون إليها؛ فهم لا مبدأ لهم .

يقول الشيخ محمد بن سعيد رسلان : الأخلاق لا تتجزأ ، الأخلاق كل مجموع لا يتجزأ، فمن أراد أن يأخذ شيئاً ويدع غيره .. من الأخلاق؛ فليدعها جملة فهو أكرم له؛ فإن يوصف الرجل بأنه لا أخلاق عنده خير من أن يوصف بأنه منافق .

المنافقون هم المنافقون، مهما تباينت شعاراتهم، وتعددت مشاربهم، ولقد نبأنا الله عن أخبارهم بما يكفي لهتك أستارهم، وفضح أسرارهم، إنهم يخادعون الله وهو خادعهم، ولا يزال المنافقون يتوارثون راية عبد الله ابن سلول زعيمهم وسيدهم جيلا بعد جيل، هذه الراية التي رفعها عبد الله بن أبي بن سلول يوم أن أعلن دخوله في الإسلام ، وهي كما نعلم راية تدعوا لما نهى الله عنه ، وتنهى عما أمر الله به .

بل ومنافق اليوم أشد خطرا من المنافق الذي كان علي عهد رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال : " المنافقون الذين منكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا علي عهد رسول الله....." "منافق اليوم يتعامل بنفس نفاق عبد الله بن سلول ، بل وأشد منه لأنه رضي علي نفسه أن يرفع رايته ، ولا شك أن المتخلق بأخلاق المنافقين المقتدي بهم فيما كانوا يعاملون به المؤمنين فهو ممن تخلق بأخلاقهم، وهو معهم تحت ظل راية واحدة، سواء كان النفاق علانا أم سرا، سواء كان علمي أم عملي .

وراية المنافقين وهدفهم هي راية اليهود وخططهم ، لأننا ذكرنا من قبل أن الهدف عندهم واحد، ولقد كان المسلمون في عهد النبي - صلي الله عليه وسلم - أمة واحدة، وقد سعي أولئك اليهود والمنافقون جهدا ليطفؤوا معالم هذه الأمة، ويفتتوا جمعها، ولكنهم لم يستطيعوا ، قال المنافقون : " **لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا...** (٧) " المنافقون ،

وحاول اليهود أيضا تفريق المسلمين وارتدادهم عن دينهم " **وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاءَ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (٧٢) " **ال عمران** ، فأنت تري قوله تعالى " **حَتَّى يَنْفَضُوا** " وقوله " **وَآكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** " تبين هذه الآيات ما استعر في نفوس هؤلاء اليهود والمنافقين وإن تباعدت المسافات أو تقاربت .

لكن الخطة بينهم لم تنجح لأن الله تعالى كشفهم وفضحهم ، فحاولوا مرة أخرى، وأخذوا يذكرن الأناصر ما جري بينهم من عداوة وحروب قبل الإسلام، وما تقولوا به من أشعار الهجاء فيما بينهم، فكشف الله خططهم بقوله " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)** " ، إلي قوله تعالى " **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)** " **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)** " **ال عمران** ، فجاء النبي - صلي الله عليه وسلم - إلي الأناصر فوعظهم، وذكرهم بنعمة

الإسلام واجتماعهم عليه بعد الفرقة وغيرها ، فتصافحوا وتعانقوا، وفشلت خطة اليهود، وسقطت راية المنافقين، وبقي المسلمون أمة واحدة كما أردنا الله ، فأمرهم الله تعالى بالتوحيد، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق؛ فقال سبحانه : **" وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) "** ال عمران .

فاعلم أخي المؤمن : أن راية النفاق لا تثمر إلا بالحنظل المر ، ورافعها يتوهم النصر، حاملا علي ظهرة الوزر، وكل ما في الامر؛ أنهم قطيع من بقر ، ليس لهم الظفر : **" وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) "** الفتح .

فيا أخي لا تكن في بطانتهم محتما ، باغتهم بسيف الكلمة، وأخرج لهم من خلف الاكمة، وارمهم بسهم الكتاب بلا رحمة، واغر عليهم بخيول السنة، وكلما رفعت الرايات تدعوا إلي النفاق، فعليك بقطع امتدادها، وإخماد نارها، وإفساد قولها، وبطلان دعوتها، والله نسأل أن يباعد بيننا وبين النفاق .

جهاد المنافقين .

إن هؤلاء المنافقين هم عنصر الفساد في المجتمع المسلم ، وهم كذلك عناصر الهدم والتخريب، وطعن المؤمنين من ظهورهم ، فما أحوجا إلي نبذهم وعزلهم، وقطع علاقتنا بهم؛ إن لم يتوبوا ويعودوا إلي السرب الإسلامي، وما أعظم وأصدق تصوير الله تعالى لما يستعر في نفوسهم الشريرة **" لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) "** التوبة .

إنه قدرنا نحن المؤمنين أن نجاهد لنموت علي عقيدة صحيحة، ولنحيا حياة خالدة نرنو بها إلي جنان عدن وخذ، لا تعلم نفس ما أخفي لهم فيها من قرة أعين .

قدري أن أعانق الموت شذودا....وعيناى شب فيها الحريق .

غير أنى علي العقيدة باق....وسلاحي بكل علج يليق .

ولما علمنا خطر هؤلاء المنافقين: كان علينا أن نسير بوسعنا نحوهم بالجهاد دفاعا عن الإسلام من خطرهم، ولا أريد أن أطيل لأن دعوتي بجهاد هؤلاء المنافقين دعوة عامة علي حد قوله تعالى " **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) "التوبة** ، هذه الآية كررت مرتين في القرآن بنفس السياق مرة في سورة التوبة، والأخرى في سورة التحريم، والأمر إذا كرر أكثر من مرة فهذا يدل علي عظيم الإشارة التي نبه الله تعالى إليها رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهذا يستدعي جهدا بالغ نحو ما أمر الله به رسوله - عليه الصلَام والسلام .

ذكر ابن كثير - رحمه الله - حول تفسير الآية : " أمر تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف، سيف للمشركين: " **فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ** " (١) ، وسيف للكفار أهل الكتاب: " **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** " (٢)، وسيف للمنافقين: " **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** " (٣)، وسيف للبيعة: " **فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبَغَّيْتُمْ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** " (٤) " (٥)

وهذا يقتضي أنهم يُجاهدون بالسيوف إذا ظهر النفاق ، ودعوة الجهاد التي أرفعها تجاه هؤلاء المنافقين، هي الدعوة باليد واللسان اتفاقا مع المفسر الجليل الإمام الطبري رحمه الله قال : " واختلف أهل التأويل في صفة الجهاد الذي أمر الله نبيه به في المنافقين ، فقال بعضهم : أمره بجهادهم باليد واللسان ، وبكل ما أطاق جهادهم به " ، وذكر من قال ذلك فقال : عن ابن مسعود في قوله: " **جاهد الكفار والمنافقين** "، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، فإن لم يستطع فليكفره في وجهه. وجميع سند الحديث كلهم رواة ثقة ، ذكرهم الإمام في تفسيره .

١ التوبة ٥

٢ التوبة ٢٩

٣ التوبة ٧٣ ، التحريم ٩

٤ الحجرات ٩

٥ تفسير ابن كثير ٣٥٥/٢

لكن إذا ظهر النفاق علي فلتات اللسان وردود الأفعال فهذا زنديقا يجب محاربتة بالسيف واليد، وهو اختيار ابن جرير - رحمه الله - ويرجع جهادهم هذا إلي ولي الأمر الذي يحكم فيهم بما يري علماء الشريعة لقوله تعالي "ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين" فاختص به النبي - صلي الله عليه وسلم - ولم يقل ياأيها الذين آمنوا جاهدوا.

و حارب النبي - صلي الله عليه وسلم - المنافقين باليد، وأمر بضربهم وإبعادهم، وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ، ويسخرون ويستهزؤون بدينهم ، فاجتمع يوما في المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله - صلي الله عليه وسلم - يتحدثون بينهم، خافضي أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله - صلي الله عليه وسلم- فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا؛ فقام أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب إلى عمر بن قيس أحد بني غنم بن مالك بن النجار- كان صاحب ألتهتم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة، ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة، أحد بني النجار فلبيه بردائه ثم نتره نترا شديدا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له: أف لك منافقا خبيثا: أدرأجك يا منافق من مسجد رسول الله - صلي الله عليه وسلم -.

قال ابن هشام: أي : ارجع من الطريق التي جئت منها .

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلا طويل اللحية؛ فأخذ بلحيته فقاها بها قودا عنيفا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه فلدمه بهما في صدره لدمة خر منها. وهو يقول: خدشتني يا عمارة، قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك، فلا تقر بن مسجد رسول الله - صلي الله عليه وسلم -

قال ابن إسحاق: وقام أبو محمد، رجل من بني النجار، كان بدريا، وأبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلاما شابا، وكان لا يعلم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام رجل من بني الخزرج، رهط أبي سعيد الخدري، يقال له:

عبد الله بن الحارث، حين أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له: الحارث بن عمرو، وكان ذا جمة^(١)، فأخذ بجمته فسحبها بها سحباً عنيفاً، على ما مر به من الأرض، حتى أخرجها من المسجد.

والمنافق يقول: لقد أغلظت يا بن الحارث، فقال له، إنك أهل لذلك، أي عدو الله لما أنزل الله فيك، فلا تقر بن مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زوي بن الحارث، فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وأف مناه، وقال: غلب عليك الشيطان وأمره.

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين، وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإخراجهم. (٢)

وقد وصف الإمام الفقيه أبو بكر بن العربي واجب الجهاد باللسان ضد المنافقين بأنه فريضة دائمة، وإذا كان واقع المسمين الآن في أكثر الأحوال لا يسمح بجادهم بإقامة الحدود والإغلاظ عليهم لكف شرهم، فهذا لا يقل من جهادهم باللسان، ورد كيدهم، والرد علي شبهاتهم الباطلة، التي يريدون بها البلبلة داخل الصف الإسلامي.

فإن هذا النفاق سيظل يتوحش ويطغي، حتى يهدم معالم الإيمان في سائر بلاد المسلمين، والجهاد مطلوب يشترط فيه أن يكون وفق المشروع، ولقد بين لنا الله تعالى في قرأته صفاتهم ليكون منها الإنسان علي دراية ومعرفة، وما دام الإنسان يقرأ عنهم ويعرف نماذج خدعهم، فإنه بذلك يحاربهم إذا صح القول: " المعرفة عدو الجهل "، والجهل هو حصن المنافقين الحصين، يختبئون خلف الحقائق كالذي يختبئ أمام عين الألة المصورة يظن أنه في أمان ولا والله إنه مفضوح بصفاته، فإنهم دائماً يتخذون الخديعة والمكر؛ ليتخفوا من مواجهة المؤمنين وجها لوجه عندما يكونون داخل الصف الإسلامي يدسون فيه السم، وينفثون فيه نار الفتنة.

١ الجمة: هي شعر الرجل إذا وصل للمنكبين

٢ السيرة النبوية لابن هشام ١٣٤/٢

منذ أن هاجر النبي - صلي الله عليه وسلم - إلي المدينة، فتح عبد الله بن سلول باب النفاق؛ فتزاحم أمامه أمة للدخول فيه، بعدما رضوا علي أنفسهم هذا القناع الذي حجب العيون عنهم، وأخفي وراءه جرائم الداء العضال، قال تعالي : **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) " النساء**

لكن سرعان ما كشف الله عن هذا القناع؛ فأنزل علي نبيه " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) " أما إذا أصابتهم مصيبة بالنسبة لهم، تكشف عن غدرهم وكذبهم " جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) " حتى يبعثوا عن أنفسهم، التهم ويردوا الشبه، إلا أن الله ختم بقوله " **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) " النساء .****

لقد ظل أولئك المنافقون يحومون حول الإسلام منذ أن أحدثوا بدعة النفاق التي لا زال إلي اليوم يعمل بها، ويعيشون منها، ويسيروا علي ضوئها، وذلك هو الفريق المراد بقوله " **وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنافِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) " التوبة .**

ومن ثم فلقد كثر المنافقون؛ حتى كان من كثرتهم عموم الابتلاء بهم، وقد كونوا أمة عظيمة تجمعها العصور والأماكن التي تواجدوا فيها؛ بهدف واحد وراية واحدة ، أمة تجمعها روابط الكفر، ودعائم الفساد، شرذمة من الناس عم بلاؤهم اعتادوا النفاق عقيدة والكذب عادة والكفر ديانة والمكر وسيلة، ورغم أنهم في كل عصر من العصور كونوا أمة مترابطة الأطراف؛ إلا أنهم دائما تختلف أسماؤهم، فمنهم الجهميون، ومنهم العلمانيون، وغيرهم....، وروابط الكفر لا تزال تجمع بينهم، فهدف الجهمين مثلا هو هدف العلمانيين، وهو هدف كل من اشترك في جريمة النفاق وتخلق بأخلاقه؛ فالهدف واحد لكن وسيلة الدعوة مختلفة .

ولكل عصر من العصور دعائه الذين يدعون إليه بتوفيق ووفاق، حسب التقاليد وتصور الطباع، تتملق ألسنتهم بالنفاق كمضغهم للطعام، مبتكرون في اصطناعه لا يحسنون شيئا سواه؛ نعم إنهم أمة ، وأي أمة! لقد نالوا من الإسلام ما يكوي له الجبين، وخذلوا الإسلام

والمسلمين، واتهموا النبي في عرض زوجته عائشة أم المؤمنين، وفعلوا ما فعلوه من مكائد عظيمة، ومواقف شنيعة، زخرت بها كتب السيرة، وتعددت حولها مقالات عديدة، ورغم ذلك لم يُشفي غيظهم ولم تهدأ قلوبهم .

ماذا يريد هؤلاء من الإسلام؟، إن الذي يتطلع كتب السيرة يجد تلك الغارات التي شتوها، والبدع التي أحدثوها، ولقد بدأت أمة النفاق تتكون وتثبت جذورها لما تطلع المنافقون علي حضارات الأمم المجاورة من اليهود - أسأ الله إليهم - وكان ذلك بعد مؤاخاة النبي - صلي الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار، والصلح بين الأوس والخزرج ، الأمر الذي لا ترتضيه اليهود ، كما ذكر ابن إسحاق : ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله - صلي الله عليه وسلم - العداوة ، بغيا وحسدا وضغنا ، لِمَا خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم .^(١)

وكأن المنافقين كانوا أمة متفرقة، لولا أن جمعتهم اليهود علي أصل العداوة وكفر الديانة؛ فظهر من المنافقين أول من ظهر رجال من الاوس والخزرج، وكانوا أفرادا كثيره فكان منهم من بني عمرو، ومن بني حبيب، وبني عوف، والجلال والحارث ابنا سويد ، وغيرهم الكثير ، والحارث بن سويد قد خرج مع المسلمين في غزوة أحد وكان منافقا وكان رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فيما يذكرون قد أمر عمر بن الخطاب بقتله أن هو ظفر به، ففاته وكان بمكة ثم بعث النبي - صلي الله عليه وسلم - أخوه الجلاس إليه، بعد أن تاب الجلاس من نفاقه، يطلب التوبة من أخيه ليرجع إلي قومه، فأبى الحارث إلا الكفر فأنزل الله فيه " كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) " ال عمران .

لقد شهدت غزوة أحد من المنافقين تحركات فادحة، وكشف الله فيها عن الكثير من صفاتهم، وبين الله تعالى حقيقة خروجهم فيها وفي سائر الغزوات؛ فقال سبحانه " لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) " التوبة .

لما نال المسلمون من الكفار في بدر، شيء قد أحزن أولئك المنافقون، فارتقبهم الخوف، وعمهم الجبن، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلهم يسارعون الدخول في الإسلام، يحسبون أن الله لا يبتلي ما في القلوب، ويمحص ما في الصدور، وكان منهم عبد الله بن

سلول الذي أزع عن إسلامه، وأزعم النصر والمولاة، كان يقوم بعد أن ينتهي النبي - صلى الله عليه وسلم - من خطبته فيقول - كذبا ونفاقا - أيها الناس، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس .

حتي جاء اليوم يوم أحد الذي كشف الله فيه عن خبايا المنافقين، وبين الله ما في قلوبهم بعد أن ابتلاهم الله ومحصهم .

فلما اجتمع القوم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمشاورة في بقاء القوم أو خروجهم من المدينة، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يري عدم الخروج، فقال واحد ممن أكرم بالشهادة في ذلك اليوم : " يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جينا عنهم وضعفنا " فما زال الناس برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتي كان منه أن حب لقاء القوم؛ فقال ابن سلول : " يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله؛ فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا " ، لكنه - صلى الله عليه وسلم - أعرض عن مقاتله، وقد ألقى الله حب اللقاء في قلبه، فدخل ولبس لأمته ثم خرج عليهم، وبقي الذين كرهوا الخروج، فأقبلوا عليه فقالو : يا رسول الله: استكرهناك ولم يك ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: " ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل " ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ألف من أصحابه، حتي إذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بالشوط بين المدينة وأحد، تخلف ابن أبي بن سلول، ورجع بثلاث الناس ممن استكره الخروج، فقال لهم : أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؛ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونيكم عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

" لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا جِلَالَكُمْ بِيُعْثُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) " التوبة .

ورجع ابن أبي، وترك الناس مع رسول الله - صلي الله عليه وسلم - يعانون مر الجهاد في محاربة الكفار والمشركين، وكان ما كان من أمر أحد؛ حتي أن الذين بقوا مع النبي - صلي الله عليه وسلم - من المنافقين لم ينصروه بشيء، بل أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، فكانوا يتقبلون بين رعب وخوف، وتوالٍ وزحف، يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر من شيء، أي: لو كان لنا في ذلك رأي ومشورة ما قتلنا هاهنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلي مضاجعهم، وليبتلي الله ما في قلوبكم، وليمحص ما في صدوركم، والله عليم بذات الصدور .

فلما قدم - صلي الله عليه وسلم - المدينة بعدما أنهكهم التعب، وقتلهم المسير، قام النبي - صلي الله عليه وسلم - لخطبة الجمعة؛ فقام ابن سلول بعدما فرغ النبي منها، وأراد أن يحث الناس كما كان يفعل؛ فأخذ المسلمون بثيابه فقالوا : اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرأ⁽¹⁾ أن قمت أشدد أمره.

لقد كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، ويوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته.

وكان من هؤلاء المنافقين زيد ابن اللصيت وكان منافقا خرج يوما في رفقة قوم من الأنصار فلما رأي عباد بن بشر، وسلمة بن سلامة، وأسيد بن خضير؛ فسأل أين يذهب هؤلاء في كل وجه؟، قالوا يطلبون ناقة النبي - صلي الله عليه وسلم - قد ضلت : أي فُقدت، وخرجوا يبحثون عنها، فقال أفلا يخبره الله بمكان ناقته؛ فأنكر القوم ذلك عليه، فقالوا: قاتلك الله يا عدو الله، ناققت ! ثم أقبل عليه أسيد بن خضير؛ فقال : والله ، لولا أنني لا أدري ما يوافق رسول الله من ذلك لأنفذت خصيتك بالرمح يا عدو الله ، فلم خرجت معنا وهذا في نفسك؟ قال: خرجت لأطلب من عرض الدنيا ، ولعمري إن محمدا ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة ، يخبرنا عن أمر السماء ، فوقعوا به جميعا وقالوا: والله ، لا يكون منك سبيل أبدا ولا يظلنا وإياك ظل أبدا ، ولو علمنا ما في نفسك ما صحبتنا ساعة من نهار ، ثم وثب هاربا منهزما منهم أن يقعوا به ونبدوا متاعه ، فعمد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس معه فرارا من أصحابه متعوذا به، وقد جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

١ قلت بجرأ: اي قولاً فاحشاً

خبر ما قال من السماء، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمنافق يسمع - : " إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ، وقال " ألا يخبره الله بمكانها؟ فلعمري إن محمدا ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة ! " ولا يعلم الغيب إلا الله ، وإن الله تعالى قد أخبرني بمكانها ، وإنها في هذا الشعب مقابلكم ، قد تعلق زمامها بشجرة ، فاعمدوا عمدها ."

فذهبوا فأتوا بها من حيث قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما نظر المنافق إليها قام سريعا إلى رفائه الذين كانوا معه ، فإذا رحله منبوذ ، وإذا هم جلوس لم يقيم رجل من مجلسه، فقالوا له حين دنا : لا تدن منا ! قال: أكلمكم ! فدنا فقال: أذكركم بالله ، هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره بالذي قلت ؟ قالوا: لا والله ، ولا قمنا من مجلسنا هذا . قال : فإني قد وجدت عند القوم ما تكلمت به ، وتكلم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبرهم بما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم .^(١)

هذه طبيعة النفاق التي جبلوا عليها، لا بد أن يخالف المنافق باطنه ظاهره، ويقال أن ابن اللصيت لم يزل فسلا حتي مات أي ردينا قبيحا في أخلاقه حتي مات .

لقد صار المسلمون فريسة لمكائد نفاقهم، وهدفا لمؤتمراتهم، ومرمي سهامهم، تقع عليهم النصائب واحدة تلوي الأخرى، بعدما دخل هؤلاء المنافقون بين الصف الإسلامي ليتمكنوا من هتك حجابيه ، وكشف أسرارهم، وقد ظهر ذلك في مقولة نبتل بن الحارث الذي أساء للنبي - صلى الله عليه وسلم - بمقولته فكان يجلس مع المسلمين فيسمع خبرهم ثم يذهب فيفصح ما اجتمعوا عليه، وهو الذي قال : رسول الله أذن أي : يستمع كل ما يقال له فيصدقه ؛ وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - عن نبتل بن الحارث : من أحب أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحارث".

فيا ويل المنافقين كم كره الله انبعاثهم فثبطهم، وكم رد الله قولهم ومقولتهم، بعدما سقطوا في الفتنة، وأشربت قلوبهم الرّدة، فلم يرضي الله عنهم ولم يرضوا عنه .

ولقد كان من عظيم مكرهم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كاد أن يقع في حبال المكر، وأمور الغدر، لولا أن أرشده الله ونجي أهل بيته فقال تعالى " **وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ**

وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) " النور ،
إنها حادثة الإفك .

لقد ظل هؤلاء المنافقون يطعنون في الإسلام، وينالون منه في كل حادثة تسمح لهم
بفرصة، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه عدائهم الحقيقي للإسلام والمسلمين، وقد توعد الله
فيه لابن سلول فقال الله في شأنه " **وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)** " النور ،
أي الذي تولى من الحديث أكثره وتكلم معظمه اي :ابن سلول له عذاب عظيم، إنه اليوم
الذي رموا السيدة عائشة رضي الله عنها بالإفك .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا،
أفرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معه .

قالت عائشة: فأفرع بيننا في غزوة غزاها؛ فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي^(١) وأنزل فيه
مسيرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوه، وقفل، ودنونا من
المدينة، أذن ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما
قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقدي - من جزع ظفار - قد
انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي
فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكانت
النساء إذ ذاك خفافا، لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر
القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا،
ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت
منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي
- أي منزلها التي نزلت فيه - غلبتني عيني فممت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من
وراء الجيش فأدج، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني،
وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخرمت
وجهي بجلبابي، والله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ
راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا
موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي

١ والهودج هو ما يكون على ظهر الجمل يستتر من بداخله مثل الخيمة مخصصه للنساء

ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكت، حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللطف، الذي كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» أي كيف حالكم، فذاك يرييني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح، فانطلقت أنا وأم مسطح، وابنها مسطح بن أثاة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بنس ما قلت، أنسبين رجلا قد شهد بدرا، قالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، فدخل علي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فجيئت أبوي فقلت لأمي: يا أمته ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا كثرن عليها، قالت قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيك تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب، فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بربيرة فقال: "أي ربيرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟" قالت له بربيرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على المنبر: "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي" فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه، يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا، ولكن اجتلهته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير

- وهو ابن عم سعد بن معاذ -، فقال لسعد بن عباد: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم، ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين جلس، ثم قال: "أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسبيرنك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه"

قالت: فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أنني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنني بريئة لتصدقوني وإني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف " فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون "

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا، والله حينئذ أعلم أنني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن، والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، في اليوم الشتات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: "أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك" فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه،

ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي، قالت: فأُنزل الله عز وجل: " **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ** " عشر آيات فأُنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي .^(١)

وهكذا كما تري كم حاول أولئك المنافقون النيل من الإسلام والمسلمين، وطعن النبي في عرضه الشريف؛ إلا أن الله تعالى رد كيدهم ودافع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بذاته، ورد الله للإسلام ما كان له من كرامته، وحفظ النبي بصدقه وأمانته " **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)** " النور .

لقد شهدت غزوة بني المصطلق مواقف دنيئة من عبد الله بن سلول، وكان جميع المنافقين الذين وجدوا في المدينة وممن حولها من الأعراب، يجتمعون لسيدهم وزعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول العوفي، وهو رجل من بني عوف من قبيلة الخزرج، وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون ، وهو الذي قال: " **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل** " في غزوة بني المصطلق، وقال أيضا " **لا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِّنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا** " ، أي: امنعوا الأموال عنه وعن أصحابه، لا تعطوه زكاة ولا غيرها، فيضطر الناس للانفضاض عنه، والأعراب الذين يأتون للمال لا يأتون، فلما سمع بذلك عمر - رضي الله عنه - قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " **دعه .. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه** " ، فترك النبي - صلى الله عليه وسلم - قتله، فانبرى ابنه عبد الله، وكان رجلاً مسلماً صادقاً - عبد الله بن عبد الله بن أبي، فقال لأبيه: والله لا تنقلب حتى تقرر أنك الذليل، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - العزيز، ففعل رغماً عنه، حبسه على باب المدينة.^(٢)

وقد نزلت بسببه هو ومن معه سورة المنافقين، والكثير من آيات القرآن الكريم، وكان سبب نفاق ابن سلول ما ذكره بن هشام : فأما عبد الله بن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله - صلى الله عليه وسلم - وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد استلبه ملكا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام، دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن .^(٣)

١ صحيح مسلم ٢٧٧٠

٢ رواه الترمذي ٣٣١٢ وقال حديث حسن صحيح .

٣ سيرة ابن هشام ٥٨٤/١

وحادثة الإفك حدث عظيم، هز كيان الدولة الإسلامية من فجرها لغروب شمسها، إلا أنه لا يعد أعظم خطر مما حدث من أولئك المنافقين يوم أن بنوا مسجدا ضرار؛ ليكون تقريبا بين المؤمنين، وإرسادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، ولولا تحذير الله من ذلك؛ لخرج المسلمون من تبوك إلي أشد وأعظم مما عانوه فيها، وبهذا يعم الخطب، ويسود البلاء، فقال الله محذرا رسوله: **" لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّفْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) "** التوبة ، نعم إنه مسجد ضرار، وقد سُمي بذلك لأنه لم يؤسس علي تقوي من الله ورضوان .

وكان بالمدينة قبل مقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير؛ فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجرا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش فألبهم على حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه؛ فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد فدعا عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يموت بعيدا طريدا، فنالتة هذه الدعوة.

ثم لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي - صلى الله عليه وسلم - فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاورا لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره

وإثباته ، عليه الصلاة والسلام، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: "إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله".

فلما انتهى النبي - صلى الله عليه وسلم - راجعا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى؛ فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: " **والذين اتخذوا مسجدا ضاررا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين** " وهم أناس من الأنصار، ائبتنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم وأخرج محمدا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فحجب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله، عز وجل: " **لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم** " إلى " **والله لا يهدي القوم الظالمين** " .

أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعني: من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: "إني على جناح سفر وحال شغل - أو كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه". فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي -أو: أخاه عامر بن عدي؛ فقال: "انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرماه". فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرماه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: " **والذين اتخذوا مسجدا ضاررا وكفرا** " إلى آخر القصة.^(١)

١ تفسير ابن كثير - انظر تفسير الآية

ولم يكتفِ المنافقون بتخلفهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه الغزوة، وتقديم
الاعذار الكاذبة، والسعي بين الناس بالفتنة، بل إنهم حاولوا جاهدين اغتيال الرسول - - -
صلى الله عليه وسلم - بنست المحاولة، وشر الجهد جهدهم .

لقد تنوعت طرق المنافقين في حربهم للإسلام وأهله لكنهم بالغوا في العدا إلى أن حاولوا
اغتيال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقتله، والعجيب أن هذه المحاولة كانت في وقت
ظهر فيه الإسلام، واستعصي فعلها علي اليهود والنصارى، بل والمشركين ، " **وَمِنْهُمْ
الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً
لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) " التوبة .**

عن أبي الطفيل عامر بن واثلة - رضي الله عنه - قال: لما أقبل رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: " إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ
العقبة، فلا يأخذها أحد " .

فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العقبة؛ يقوده حذيفة، ويسوقه عمار، إذ أقبل
رهنط مثلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً، وهو يسوق برسول الله - صلى الله عليه وسلم
- وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحذيفة: "
فُدُّ، ويا عمار: سُقُّ سُقُّ "

فأقبل عمار على القوم فضرب وجوه رواحلهم، حتى هبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
من العقبة، فلما هبط، ورجع عمار قال: " يا عمار، هل عرفت القوم؟ "
فقال عمار - رضي الله عنه : قد عرفت عامة الرواحل، والقوم مثلثمون.

قال - صلى الله عليه وسلم : " هل تدري ما أرادوا؟ "، قال عمار - رضي الله عنه -: الله
ورسوله أعلم.

قال - صلى الله عليه وسلم : " أرادوا أن ينفروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فيطرحوه " .

قال : فسأل عمار رضي الله عنه رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟

قال: أربعة عشر رجلاً.

فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر.

قال: فعذر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم ثلاثة؛ قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما علمنا ما أراد القوم.

فقال عمار: " أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد " (١).

" وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) " النساء.

ثم لما تبين للنبي - صلي الله عليه وسلم - كثرة المنافقين، وأنهم بدأوا يكونون شعوبا ومجتمعات، ومجالس واجتماعات، طردهم من مسجده، وبدأ يفرق بينهم وبين المؤمنين، وقد أغلظ عليهم حيث كانوا يأتون السجد، ويحضرون المجلس، فيستمعون لأحاديث رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ويسخرون ويستهزؤون بدينهم، فأمر الرسول - صلي الله عليه وسلم - بإخراجهم من المسجد إخراجا عنيفا، وبدأ يتنزل عليه - صلي الله عليه وسلم ما يتلى من أوصافهم، وصفاتهم وكيدهم ومكرهم، قال ابن هشام: " ففي هؤلاء من أحيار يهود ، والمنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها- فيما بلغني- والله أعلم " (٢).

ولقد كان هؤلاء المنافقين يدعمون اليهود في كل حادثة يمكرون فيها برسول الله - صلي الله عليه وسلم - وبالإسلام والمسلمين، قرناء سوء وأصحاب مصالح فاسدة، تتكف أنفسهم طباع ظاهرها نفاق، وباطنها كفر، أفتعتهم حبائل الكيد، ووسائل المكر، أن النفاق سيد الاخلاق؛ فأصبحوا ينافقون بقصد وبدون قصد، ولقد كاد صبر النبي - صلي الله عليه وسلم - ينفذ يوم أن وقف واحد منهم وقال مقاله النفاق التي اقرعت الأذان، وأرعدت الأسماع والوجدان، إنه ذو الخويصرة التميمي قال : اعدل يا محمد، وهو والله لا يريد عدلا ولا حقا،

١ أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٥٣، والطبراني في المعجم الكبير كما في مجمع الزوائد ١/ ١١٠ - ١١١ ، والبيهقي في مسنده (٧/ ٢٢٧ رقم ٢٨٠٠)، من طرق عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل رضي الله عنه .
٢ سيرة ابن هشام ١٣٥/٢

وإنما اراد أن يصرف الناس عن القسمة المحمدية والعدالة الربانية وقد دفعه نفاقه لمقاتته أن يفسد بها علي الناس عقولهم، ويغير طباعهم، إلا أن النبي - صلي الله عليه وسلم - قال : " ويحك فمن يعدل إن لم أعدل " وقد رد النبي - صلي الله عليه وسلم - عن الذي أراد قتله مخافة الفتنة تنبت في قلوب المرضى .

وفجع النبي - صلي الله عليه وسلم - بمقالة ودیعة بن ثابت من بني أمية، وقد شارك في بناء مسجد الضرار قال " إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله " **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِنَّآءِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) " التوبة** ، وفجئ النبي - صلي الله عليه وسلم - برد الجد بن قيس عليه : يا محمد إنذني لي ولا تفتني فأنزل الله " **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنذِرْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) " التوبة**.

لقد عاش أولئك المنافقون عهدا في زمن النبي - صلي الله عليه وسلم - وهو يري من فسادهم، ويشاهد خبايا نفاقهم، وقد مات النبي - صلي الله عليه وسلم -، وترك أمته سليمة المعتقد، كاملة الإيمان، لكن أولئك المنافقون لم يرضوا العيش في ظل هذه الأمة المتماسكة " **إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ (١)** " فهم أحق بنفاقهم، وأولي بخداعهم ، وبموته - صلي الله عليه وسلم - ارتد هؤلاء عن الإسلام ، فأغلظ فيهم أبو بكر - رضي الله عنه - وانتقم منهم أشد الانتقام، وحاربهم أجل الحروب.

ذكر الواقدي في ذكر رده : ما كان من المنافق الكذاب فجاءة بن عبد يالليل، ومالك بن نويرة، ومسيلمة الكذاب، وغيرهم مثل طليحة بن خويلد الذي أدعي النبوة علي رأس فزارة وبنو سعد وغطفان، وما كان من نفاق عبيبة بن حصن الفزاري، وارتداده عن الإسلام، وأتباعه نبوة طليحة بن خويلد وغيرهم الكثير، ولما حضر عبيبة بن حصن مع الأسري أمام أبي بكر قال له أبو بكر: " يا عدو الله ، أسلمت وقرأت القرآن ثم رجعت عن دين الإسلام كافر ا، لأضربن عنقك صبيرا " . قال عبيبة : " يا خليفة رسول الله - صلي الله عليه وآله وسلم -، إن الجميل أجمل ، وقد كان رسول الله - صلي الله عليه وآله وسلم - أعرف بي منك ، لم يخف عليه شيء من أمري ، ولقد خرج من الدنيا وإني لمقيم على النفاق ، غير أنني تائب إلى الله وإليك في يومي هذا ، فاعف عني ، عفا الله عنك) .

فعفا عنه أبو بكر - رضي الله عنه - وصفح عن بني عمه ، وأحسن إليهم وكساهم .

ولما انتهى خالد بن الوليد - رضي الله عنه - من قتال أولئك المرتدة من بني فزارة وسعد وغطفان وزعيمهم طليحة وغيرهم، توجه بالجيش لبلاد تميم لملاقاة مسيلمة الكذاب، بعد ما علا أمره باليمامة، وهو يقول أنه أحق بالنبوة، وأن جبريل ينزل عليه بما يريد، وقد ظهر أمر مسيلة الكذاب باليمامة، وانتشر ذكره في الناس، وسمعت به سَجَاح وقد كانت ادعت النبوة وتبعها رجال من قومها: غيلان بن خرشنة، والحارث بن الأهتم، وجماعة من بني تميم، قال: وكان لها مؤذن يؤذن لها ويقول: أشهد أن سَجَاح نبيه الله فسارت سجاح هذه إلى مسيلمة الكذاب، فسلمت عليه بالنبوة، وقالت: " إنه بلغني أمرك، وسمعت بنبوتك، وقد أقبلت إليك، وأحببت أن أتزوج بك، ولكن أخبرني ما الذي أنزل إليك من ربك"، فقال مسيلمة: أنزل علي من ربي: " لا أقسم بهذا البلد، ولا تبرح هذا البلد، حتى تكون ذا مال وولد، ووفر وصفد، وخيل وعدد، إلى آخر الأبد، على رغم من حسد"، فقالت سجاح: " إنك نبي حقا وقد رضيت بك، وزوجتك نفسي، ولكن أريد أن تجعل لي صداقا يشبهني"، قال مسيلمة: " فإني قد فعلت ذلك"، ثم دعا بمؤذنه فقال: " ناد في قوم هذه المرأة: ألا إن نبيكم مسيلمة قد رفع عنكم صلاتين من الخمس التي جاء بها محمد بن عبد الله، وهي صلاة الفجر وصلاة العشاء الأخيرة"، فقالت سجاح: " أشهد لقد جئت بالصواب".

اه اه، والله إنه لمجتمع قد تراكم فيه النفاق بعضه علي بعض، فلا فساد فيه إلا ظهر، ولا باطل إلا وقع، ولا حق إلا طمس، ولا عهد إلا نكث، ولا كذب إلا صدق، ولا صدق إلا كذب، وأراني أشاهد ذلك المجتمع الخبيث يزرع بيده بذرة النفاق ليحصد عناقيد الشوك، بعدما رضوا علي أنفسهم بنفاق القلب والجسد، وكفر النية والمعتقد، ولقد حكموا علي أنفسهم بالنفاق العيّن، والضلال البيّن، وأقاموا الحجة علي نفاقهم بقوله - صلي الله عليه وسلم - : " إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا، ولقد هممت أن أمر بالصلاة، فتقام، ثم أمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار " (١)

ويأبي الله إلا أن يظهر دينه، ويتم نوره، ويرد للإسلام اعتباره، فقتل الكذاب مسيلمة علي يد وحشي غلام جبير بن مطعم - رضي الله عنهما - مما جعل هذا العبد الاسود خادم جبير ينادي بما لحقه من شرف لقتله مسيلمة: " أيها الناس، أنا وحشي غلام جبير بن مطعم

قتلت خير الناس وأنا كافر ، أعني حمزة بن عبد المطلب ، وقتلت أشر الناس وأنا مسلم " ،
يعني مسيلمة الكذاب .^(١)

وأما عن بدعة النفاق فإنها لا تزال إلي اليوم يعمل بها في أمه واسعة المدي، كثيرة العدد،
حتي إنك لتفجع من سماسرة النفاق الذين يزيفون الكلام ليصرفوا الناس عن دينهم، حتي
يستكن الضعف فيهم، وتستحذي القوي فينبسط ظلام الليل علي أمة كانت بالأمس يهابها
قيصر وكسري، ولم تتوقف أمة النفاق عند قتل مسيلمة بل إن النفاق ليزال إلي اليوم
يستوحش ويطغي، وكلما كان زمان كان نفاقه أشد خطرا مما قبله، فلقد خالط النفاق جميع
طبقات المجتمع حتي أن الكفرة نفسهم الذين لا يشهدون بالهة، ولا يعترفون بإسلام، ينافقون
من أجل مصالح دنيوية، نعم إنها أمة من الناس عظيمة، لا تدري متي تكونت وفي أي
زمان جُمعت، لكن من المصيبة أنها تكونت، وفي كل زمان جُمعت، ولقد وقف لها أبو بكر
وهو الذي استعمل الثبات والحزم يوم أن ارتدت العرب، ومنعوا الزكاة، وأشرب النفاق،
وتأججت جذوة الشقاق، وأشار عليه عمر - رضي الله عنه - بالرفق بهم، فقال : " والله
لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا
يؤدونها إلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم على منعها " ^(٢) فكان رأيه الرأي
الصائب، وفكره الفكر الموفق، فجرد الجيوش لقتالهم وما هو إلا أن نصر الله أوليائه،
وعادت العرب إلي أداء الزكاة طائعين، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " والله
الذي لا إله غيره ولا إن أبا بكر استُخلف، ما عُبد الله، ثم قالها ثانية وثالثة، فقيل له مه يا أبا
هريرة، فذكر اليوم الذي ارتدت فيه العرب " ^(٣) ، وما نراه اليوم من نفاق أصحاب النفاق،
وارتدادهم عن الحق؛ إنها رجعة ولا أبا بكر لها ، وقضية ولا أبا الحسن لها .

فكن يا أخي المؤمن علي حذر من كثرتهم؛ فإن فيهم اليد تتبعها اليد، والعين تتبعها العين،
مجتمعون عند نبت الضلال، ومتفرقون عند جذور الحق، نسأل الله أن يكفيهم عنا وينصرنا
عليهم، ويشفي صدور قوم مؤمنين .

أيها المنافقون سيروا في طريق أسلافكم إلي الدرك الأسفل من النار .

١ انظر كتاب الردة للواقدي.

٢ صحيح البخاري برقم (١٤٠٠)

٣ الاعتقاد للبيهقي (٣٤٥/١)

إن من أجل ما يسعي إليه العقلاء؛ هو أن يتقي الإنسان ما يعود عليه بالضرر، فينصرف بنفسه وفكره وعقيدته حتى لا يقع في مغاليق الكفر، فعليه أن يتأمل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي وردت في هذا الباب فيكون الأولي منه الوقوف عليها، والعمل بمقتضاها، والالتزام بأوامرها، وتفويض الأمر لشارعها، فإن الله سبحانه وتعالى أوضح في قرآنه بياناً جامعاً بصفات المنافقين، ذكر فيه المجمل والمطول، حتى كاد القرآن أن يكون في شأنهم، وذلك ليكون الإنسان علي علم فيتولد عنده الحذر فإنه علي قدر علم المرء بالشيء يكون حذره منه .

وإن صلاح هذا المجتمع هو نشر الوعي بواقع الأمة بكافة أرجائه، وفضح مخططات المنافقين، وبيان حقيقتهم، وهدفهم، وصفاتهم، إلي غيره، وبذلك نكون علي قرب من قطع رايتهم، والقضاء عليهم، وهذا لا يتم إلا ببث الوعي ونشره في نفوس المسلمين، والالتزام بسنة سيد المرسلين، وجهادهم في كل وقت وحين، وهذه الأمور الثلاثة هي بناء علي أساس، وأصل في نبذ هؤلاء المنافقين عن مجتمعنا الإسلامي؛ فإنه لا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

أولاً : بث الوعي ونشره في نفوس المسلمين، قبل أي شيء لا بد أن نكون علي وعي تام بصفات هؤلاء وألوانهم، وأشكالهم، ولا بد أن يكون هذا الوعي سائداً في المجتمع كله، حتي إذا ما حاول واحد منهم؛ سلط عليه الضوء، فُعرف وتميز بنفاقه، وبسبب ضياع هذا الوعي وفقدان الوعي صار معنا المنافقون يدا بيد، وكتفا بكتف، حذوا النعل بالنعل، تَطَّلَع اليوم بعينك ستري المنافقون بكل مكان، حتي إن الأمة الإسلامية صارت كاليابس الهشيم تحيط به النار من جميع جوانبه يوشك يوماً أن تحرق النار صغيره وكبيره، قليله وكثيرة، حتي يكون واقع الأمة أسوأ حالاً من هشيم المحتظر؛ إلا أن يسقط الله تعالي عليها مطراً يطهر أرجائها، ويطفئ من النار ما أحرق جوانبها.

أين وعي الأمة؟ وأين جهود العلماء؟، سؤال لا بد أن يسأل، وقول لا بد أن يقال، وحقيقة لا بد أن تعرف، وواقع لا بد أن يدرك، أين وعي الأمة وأين جهود العلماء؟، هذه قضيه من أهم القضايا حتي يستقيم أمر هذا الدين، وما يحدث من انتشار النفاق، وغلبة الفتن، ومحو الدين وغيره، يدل علي ضعف الوعي عند القوم فإن معايير العلم والوعي والتجرد للأمانة

والحق والصدق وغيره، شروط ومبادئ وأخلاق لقيام أي أمة تقوم علي أساس صحيح، ولا بد أن تتحول الخسائر إلي وعي وإدراك بين القوم، وتُنشِئُ المبادئ في نفوس أهل الإيمان، وهذا من حصاد الوعي إذا استحکم أطراف الأمة أو الدولة، ولا بد أن يكون هناك وعي ذاتي في التعامل مع مقاصد الشريعة، إذا فالوعي هو المطلوب وواجب العلماء بث الوعي في الأمة .

وحيثما يكون الإنسان لا يحمل وعيا ولا إدراك للواقع؛ فإنه يعمل علي محاربة نفسه، وأذي أولاده ومجتمعه، لأنه لا يؤمن بمعتقد قوي، ولا يعي شريعة صحيحة، ومما لا ريب فيه أن فقدان هذا الوعي من أسباب الاضطهاد الفكري وسلب الحرية والكرامة، فيا حبذا لو توجهه دعاء الأمة، وعملوا علي إيقاظ الوعي الديني، وقرع أبواب القلوب والعقول به، وغرسه في النفوس ليصلح كل شيء في الافراد والمجتمعات، وإذا ما توفر هذا الوعي الديني الراشد في أفراد المجتمع؛ تضيق الحال علي المنافقين، فلا يجدون لمفر من سبيل، ولا لعود من أمان .

وإننا والله نحزن؛ حينما نري العلماء تسب وتشتم وتضرب ويرمي بهم عرض الحائط حينما يصعدون بجراءة، فيقولون : فلان كافر، وأخر منافق، وأخر زنديق، هذا باسمه، وذاك بوصفه ، هذه نعمة من الله عظيمة أن يصعد علماؤنا؛ فيشرون علي كل مبتدع باسمه ووصفه؛ ليسهل علينا تميزه ونبذته، لكن كثيرا من الناس يظهر منهم الجفاء والاعراض كله، والخروج علي العلماء فتراه يقول الشيخ فلان يكفر، ويفسق، ويبعد، وينفر، ويفرق وحدة الإسلام ، أي وحدة هذا ؟، وحدة جمعت علي النفاق! إن علمائنا لا يفرقون ولا ينفرون، بل إنهم علي الحق سائرون، أخذين ما أتاهم ربهم، وبما كان عليه السلف - رحمهم الله - باتباع منهجهم : "التخلية قبل التحلية" فهم يجردون الأمة من مناقبيها وسفهاؤها، ثم بعد ذلك يملوها بالعلماء، ويزينوها بالعلم فيستقيم أمرها، ويزول اعوجاجها، وسبب خروج الناس علي علمائهم، وسبهم وشتمهم هو أنهم باعدين كل البعد عن واقع الأمة، والوعي بإدراك الشيء من نقيده، بل ولا بد من الانخراط في قضايا الأمة لحل مشاكلها، والعمل علي إصلاحها من فساد المفسدين، وإذا لم يبادر العلماء والشيوخ إلي هذا الأمر، فإلي من يلجأ الناس؟ إضافة لأن يكون مع هذا الوعي إدراك بالمسؤولية، وإدراك بواقع الأمة لو تمكن المنافقون منها .

ثانيا : الالتزام بالكتاب والسنة .

والالتزام بالقران الكريم وأوامره أمر معلوم لا يجوز الانحياز عنه، ولا يجوز أيضا في السنة، إلا أن الناس قد تهاونوا في شأنها، وأسأوا في تطبيقها، وسأقتصر بالذكر علي السنّة وحدها؛ لما ظهر أخيرا من صنيع الناس بالإعراض عنها .

إن الله تعالى فرض علينا الالتزام بالسنة، وبين سبحانه أن الالتزام بفعل النبي - صلي الله عليه وسلم - من أمور النجاة، وأن مخالفة الرسول - صلي الله عليه وسلم - يقع لا محالة في أمور الهلاك من فتنة تنتهي بعذاب أليم " **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)** " **النور** ، فأقول : إن عدم الالتزام بسنة النبي - صلي الله عليه وسلم - وقوع في النفاق، وقد صار التهاون في السنة سنة، وترك السنة سنة، والمحزن أن الامر تجاوز عند البعض مرحلة التطبيق، وحل محلها مرحلة التنفير ، من الزهد بتطبيق السنة والتقليل من شأنها، وإذا ما نظرت في قوله تعالى: " **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)** " **الاحزاب** .

علمت إذاً أن التأسى بالسنة من دلائل الإيمان، ومن يخالف ذلك فشعبة من النفاق تنبت في قلبه يوشك يوما أن تعمي بصيرته، وتميت قلبه ، فالالتزام بالسنة هو قلعة النجاة من عواصف الفتن؛ وإذا كان الإنسان عاضا علي أوامر الله ملتزما بتعاليم النبي - صلي الله عليه وسلم - حابسا نفسه علي تطبيقها، فإنه لا تخلعه فتنة، ولا تضره مصيبة، " **فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)** " **الاعراف** ، ولقد نفى الله تعالى الإيمان عن الذي يخالف أمر النبي - صلي الله عليه وسلم - ويعرض عن حكمه، والالتزام بسنته : " **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** " **النساء** .

" اقسام الله تعالى بنفسه الكريمة؛ أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتي يجعلوك يا محمد حكما فيما وقع بينهم، من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلي سنتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادا عظيما؛ فالحكم بما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم"^(١)

فانظر أخي المؤمن كيف نفي الله تعالى الإيمان عن هؤلاء المنافقين لأنهم أعرضوا عن تحكيم الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وترك هذه السنة دليل علي وجود النفاق .

قال الفضيل بن عياض: إذا رأيت رجلا من أهل السنة، فكأنما أرى رجلا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإذا رأيت رجلا من أهل البدع، فكأنما أرى رجلا من المنافقين.

ولعك تري اليوم هؤلاء الذين يتزكون السنة لعلمهم أنها سنة، تقول له النوافل، يقول لك علي سبيل الترك: سنة، تقول: لحيه، وصيام، وصدقة، وأضحيه، يقول لك: سنة، والله الإنسان لا يدري السنة تفعل لأنها سنة، أم تترك لأنها سنة، ولقد حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - من دعوي الاستغناء بالقران عن السنة فقال: " لا ألفين أحدكم متكنا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه " (١)

وقال الشافعي : أجمع المسلمون علي أن من استبان له سنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يحل له أن يدعها لقول أحد " ، وقال أبو حنيفة : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

وقال ابن تيميه : " وأنتم تعلمون - أصلحكم الله - أن السنة التي يجب اتباعها، ويحمد أهلها، ويذم من خالفها : هي سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أمور الاعتقادات، وأمور العبادات، وسائر أمور الديانات، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الثابتة عنه في أقواله وأفعاله، وما تركه من قول وعمل، ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان " (٢)

فالالتزام بالسنة ليس مجرد شكل وهيئه يحافظ عليها الإنسان فحسب، بل هي قول وعمل واعتقاد وسلوك؛ فإذا جمع الإنسان بين القول السديد والعمل الصالح والاعتقاد السليم والسلوك القويم؛ فمن أين يتطرق إليه النفاق؟ ومن أين تدخل إليه فتنة؟ " **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) "**

. الاحزاب

١ مسند الامام احمد (٢٣٨٧٦)

٢ مجموع الفتاوي ٣/٣٧٨

ثالثا : مواجهة المنافقين بالقضاء عليهم .

لما توفي رسول الله - صلي الله عليه وسلم - أصبح المسلمون كالغنم في الليلة الممطرة أصوافهم مبتلة، وفرائسهم مرتعدة، وأقدامهم غير ثابتة، بلغ بهم المطر مبلغة أنساهم ما كان قبله، وأفقدتهم لذة العيش بعدة؛ فأصبحوا يعانون من فقدان نبيهم، وقلة عددهم، وكثرة عدوهم، حتى قام فيهم أبو بكر الصديق خطيبا وإماما، وسيدا وخليفة، فهدى الله به جمعهم، وألم به شملهم، وما لبث في الخلافة حتى وجد ما كان يحذر منه رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ظهر النفاق، واشترأت اليهودية والنصرانية؛ فاستعمل الله أبا بكر لقتالهم، وقد عامل أبو بكر هذه الفتنة الدماء ببراعة ودهاء؛ فقال مقالته المشهورة ، وقد وقف أبو بكر أمام هذه الفتنة بالصمود، وتعامل مع المنافقين بالغلظة، علي حد قوله تعالى : **" قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُدْهَبِ عَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) "** التوبة . فالمنافقين لما ارتدوا لم تحسب لهم ردة فقط، لأنهم في الاصل كفار أظهروا كفرهم الحقيقي ، وهذه في حقهم ردتين لا ردة واحدة.

فعلينا أن نسير علي منهج الله ورسوله - صلي الله عليه وسلم - ونستعيد صنيع أبي بكر - رضي الله عنه - لجهاد أولئك المنافقين .

والحمد لله رب العالمين .

البيوت الشيشية:

صنات

البيوت القوية:

ذكر الله تعالى من النفاق في قرانه ما يكفي لبيان صفات المنافقين وأوصافهم، وما هم عليه من الخطأ والإثم، وامتأ القرآن الكريم بالآيات التي تشير إليهم، وبين الله جرم فعلهم، وهذه نعمة من الله عظيمة، ومنة منه جليلة، فالقارئ في هذا المقام يجد فوائد جمة، وآيات وعبر، والإنسان لا شك يتعرض للنفاق في موقف أو أكثر - ما لم يكن ذلك منه علي سبيل الدوام - حتي وإن شب حياة طيبة نمت فيها التقوي والصراحة وحسن القلب والاخلاق، ولهذا كثر تحذير النبي - صلي الله عليه وسلم - من النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق خلق ذميم يرتضي من الإنسان أن يكون جاهلا به بعيدا عنه، لذلك تري كثيرا من غناء الناس يتعاملون بالنفاق، وقد صاروا سماسرة له أمام اولادهم وأقاربهم، ومن يتعامل معهم ويعرف حقيقتهم من خلف الوعد، واجترأ الكذب، والتوالي يوم الزحف، إلي أخرة .

ومن ثم فلقد اجتهد النفاق في قلب الحقائق، وتزين الوقائع فبدل للناس دينهم، وغير معتقدهم، يوم أن مردوا علي النفاق والاستغلال، والسعي خلف المصالح، والتعلق بزينة الدنيا، وهم بذلك مردوا علي مقاطعة الوحي، ومخاصمة الانبياء، ومعادة الدين، " **قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) " التوبة .**

نسوا الله فنسيهم، ونضب معين التقوي قلوبهم، وزلزل الخوف أوصالهم، يمشون في ركاب ذوي الجاه، وقد مردوا علي النفاق، تعرفهم بسيماهم وبأساليبهم، يخادعون الله ويخدعون الناس ويحسبون أنهم مهتدون ، اختلفت توبتهم من النفاق عن أي توبة سواها؛ فحدد الله لها شروطا أربع؛ يدل ذلك علي قبح أمرهم وفساد معتقدهم " **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ " النساء .**

قال ابن كثير - رحمه الله : " ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لنلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير" (١)

" إن المتدبر للقرآن الكريم يراه قد فصّل الحديث عن النفاق والمنافقين تفصيلا يجعل كل عاقل ينفر من هذه الرذيلة التي تتنافي مع الشرف الإنساني، ومع السلوك القويم، ومع الخلق الكريم، ومع الفطرة السليمة، التي فطر الله الناس عليها، ولقد وردت كلمة النفاق والمنافقين فيما يقرب من أربعين موضعا من القرآن الكريم، وكلها تدل علي رذائل ما فشت في أمة إلا وكان أمرها فرطا، وكانت عاقبتها الخسران والضعف والهوان " (١)

وذكر الله تعالى للنفاق في قرآنه يكشف عن فوائد عظيمة من أهمها :

- بيان خطورة النفاق وأنه طريق للهلاك.

- بيان أن عدم معاقبة المنافقين حال ظهور نفاقهم؛ كان لزيادة فجورهم وعذابهم في الآخرة.

- نعمة الله - عز وجل - على المؤمنين بإخبارهم عن أحوال المنافقين وصفاتهم؛ حتى يبتعدوا عنها.

- تهديد المؤمنين من سلوك مسالك المنافقين والتحذير من الاتصاف بصفاتهم.

ورحم الله القائل :

لا شيء فوق أديم الارض يعجبني ... كالصدق بين الوري في القول والعمل .

وليس شيء لَعَمْرُ الحق يؤلمني ... مثل النفاق ومثل الكذب في الرجل .

هذا ويؤلمني إن أري أثر ... للصدق، والكذب فاش غير منتقل .

١ حديث القران عن النفاق والمنافقين محمد سيد طنطاوي ص ٩

فمن صفاتهم : أنهم يقولون أمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

هم فريق من الناس متردد بين المؤمنين والكافرين، شردمة من الناس يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وإن من أسهل الأشياء أن يقولوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لذلك نفي الله الإيمان عنهم، وبين أنه لم يدخل قلوبهم، " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)** " الحجرات، فالإيمان ليس ادعاء كما يدعيه أولئك المنافقون؛ فقولهم أمنا بالله وباليوم الآخر دعوي يكذبها الحال إذ أن حال المنافق لا يتوافق مع قوله وفعله؛ لأن دعوي الإيمان لا تتحقق إلا بالتصديق " **بَلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)** " الحجرات .

ومثل هؤلاء المنافقين حرم الله أن يدخل الإيمان قلوبهم؛ لما فيها من أمراض وعلل تمنع من وصول الإيمان بداخلته؛ فالإيمان هو المعرفة وهو الاقرار وهو العمل، يستلزم من الإنسان أن يستقيم علي أمر الله وشرعة، كما قال النبي - صلي الله عليه وسلم - لسائله : " قل أمنت بالله ثم استقم " (١)

وهذه الآية " **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)** " البقرة ، هي من أهم ما يميز المنافق عن غيره، لأن الاختلاف بين الظاهر والباطن، والدعوي والحقيقة صفتهم، كما قال الامام الطبري - رحمه الله : وأجمع جميع أهل التأويل على أنّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم . اي كونهم يقولون أمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين . (٢)

قال ابن القيم - رحمه الله : " درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها "، وقال: "لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون " **آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)** " (٣) ونفاقهم في هذه الآية هو النفاق الأكبر المخرج من الملة بالكلية.

١ الحديث نصه : عن سفيان بن عبد الله الثقي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه

أحدًا بعدك قال قل أمنت بالله ثم استقم. رواه ابن حبان ٩٤٢ .

٢ جامع البيان في تأويل أي القرآن ، تفسير الآية .

٣ مدارج السالكين ٣٥٦/١

ومن صفاتهم : يخادعون الله والذين آمنوا .

هذا الخداع كان بإظهار ما أظهروا من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخادعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، قال تعالى: " **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** " (١٨) المجادلة .

لكن هذا الخداع قد انكشفت مخبأته، وظهرت بواطنه، فعاقبه الله من فعلهم " **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** " (٩) .

وعرف ابن رجب الخداع : وهو أن يظهر الإنسان في الظاهر قولاً أو فعلاً، وهو في الصورة التي أظهره عليها حسن، ومقصودة بذلك التوصل إلي غرض فاسد .^(١)

قله ما أقبح هذا الخلق وأفظعه، وما أشد تصور الله تعالى لهم؛ فوصفهم بمرض في قلوبهم لشدة خداعهم، فالله تعالى لما نفي الإيمان عنهم أثبت لهم الخداع لأن قولهم أماناً بالله وباليوم الآخر ليس من باب الإيمان والاعتقاد الجازم، بل من باب الخداع والمواربة، لأن شرط الإيمان والتصديق ما ذكره سبحانه : " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** " الحجرات

فدمهم الله وتوعدهم، وشنع عليهم مسالكهم، لأن حقيقة إظهارهم الإيمان إنما كان إحرازاً لدمائهم وأموالهم، لا لما قصد له في الشرع من الدخول تحت طاعة الله علي اختيار وتصديق قلبي، وبهذا المعنى كانوا في الدرك الأسفل من النار .

وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكانهم يعملون ما يعملون من المكر؛ لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم وعبادته المؤمنين لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا يضر المؤمنين إن أظهر المنافقون الإيمان لتسلم أموالهم به وتحقق دماؤهم لكن صار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة ، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع؛ بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحمافتهم لا يشعرون بذلك .

١ تفسير ابن رجب ٢٧٣/١ ، مجموع الرسائل- له ٤١٥/٢

فيا ويل من خادعه الله فأظهر الله سره وكشف الله أمره، فكان من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

قال ابن كثير : " ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك، بقوله: **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) "** (١).

والخداع عامة لا يستخدم إلا في تحقيق المصالح الشخصية، والوصول إلي الأغراض الدنيئة، وهو سلاح الضعيف يعده للاحتماء به من بطش كل قوي، والحكيم الصالح لا يخدع أحد، وهذا المبدأ من سمات القوي والصبر والمواجهة .

والمنافقون بذلك لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لافترائهم هذه الدعاوي من قولهم ءامنا بالله وباليوم الآخر، ودليل ذلك أن من يصاب منهم في قلبه لا يعالج مرضه، لأن من ينكت إنما ينكت علي نفسه، قال تعالى: **" فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) "** البقرة، ولولا خوفهم علي أنفسهم من القتل والهلاك، لم يتخذوا الخداع تقية،

وقد خادعهم الله علي خداعهم، وكأني بهم والمؤمنون يوم القيامة يخادعونهم **" قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) "** الحديد .

فيوم القيامة لا خداع فيه ولا موارد، إنما الخداع لمن خدع، وهو أشد منه في الدنيا وأعظم **" هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) "** النساء، أي من يكون علي هؤلاء المنافقين يوم القيامة وكيلًا .

ومن صفاتهم : في قلوبهم مرض .

ومرض قلوبهم ما ذكره الإمام السعدي - رحمه الله : والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعالها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: "فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ"^(١) وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.^(٢)

لكن لماذا يكون النفاق مرضا من أمراض القلوب ؟ قال الراغب "ويُشَبَّه النفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض؛ إما لكونها علة مانعةً عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل ..."^(٣)

ومهما يكن من شيء، فإنهم مرضي القلوب انقلبوا إلي الشهوات، وقنعوا بأثار الشبهات، ولجأوا إلي المخادعة والكذب، ومعاداة الله ورسوله .

إنه النفاق لا غير هز كيانه، واستولي علي قلوبهم، وستحوى مناهجهم، فصارت قلوبهم مريضة، ونفوسهم عليلة، ضاع منها الإيمان، واستوحش بها الخوف، وطمس فيها نور الحق، بعدما فسدت تلك المضغة؛ ففسد الجسد كله لفسادها ألا وهي القلب .

وماذا تحصد من قلب مثل هذا ؟ غرس فيه النفاق غرسه، وزرع زرعه، فصارت قلوبهم منكوثه رجعت إلي الكفر بعد الإيمان، قال حذيفة : القلوب أربعة: فقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب رجع إلي الكفر بعد الإيمان، وقلب مجرد مثل السراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح اجتمع فيه النفاق والإيمان، فمثل الإيمان فيه كمثل بقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل قرحة يمدها القيح والدم، وهو لأيهما غلب^(٤) .

المصفح أي الذي له وجهان: يلقى أهل الكفر بوجهه، وأهل الإيمان بوجهه .

١ الأحزاب ٣٢

٢ تفسير السعدي ٤٢/١

٣ المفردات ص ٧٦٥ .

٤ رواه أحمد / ١١١٢٩ .

وهذا هو حالهم يتعاملون بوجهين. وجها يقول أننا بالله وباليوم الآخر، والوجه الآخر يخادعون به الله والذين آمنوا فوصفهم سبحانه أنهم " **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** " وهذه الآية أبلغ تعبير في الاستهزاء بهم بعد كونهم يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا ، فبين الله ما في قلوبهم من شك فزادهم الله شكًا .

ومرض قلوبهم يشير أنهم قوم ضعاف اليمان إلي أدني حد، وأحوالهم تتقلب وتقلب إلي معسكر النفاق الصريح لقلة يقينهم، وضياح عقيدتهم، وشدة تعلقهم بزينة الدنيا وحرصهم عليها.

واختص الله من أمراض قلوبهم الشك فوصفهم الله به وجعل الجزاء من جنس العمل فزادهم الله شكًا علي ما في قلوبهم من ظن فاسد، واعتقاد باطل " **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)** " التوبة، وهذا النوع من الظن من أنواع النفاق الاعتقادي المفضي إلي الدرك الاسفل لا محالة، وسيأتي الكلام عنه في موضعه إن شاء الله في قوله تعالى " **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** " .

ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله؛ فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق، محبا له، مؤثرا له على غيره؛ فمرضه إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه؛ فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة (١).

والقلب لا ينفع صاحبه يوم القيامة إلا إذا كان سليما من أمراض الشبهات، خاليا من أمراض الشهوات، كما قال سبحانه " **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** " الشعراء، فينبغي علي الإنسان أن يحذر من النفاق وتشعبه، فمرض القلب أشد وأعظم من مرض البدن، وذلك لأن صلاح البدن من صلاح القلب، والعلاقة بينهم علاقة تلازميه ، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - " **ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**" (٢)

وإن لمرض القلب ألم في القلب شديد، يبغي لكل إنسان أن يبحث عن دوائه وشفائه، فإن القلب يتعرض علي كل حال للمرض، كالبدن إن لم تحافظ عليه، ولما كان مرض القلب أشد من مرض البدن، كان ألمه أشد ووجعه ألد، قال الامام ابن تيميه - رحمه الله " ومرض

١ شفاء العليل ٩٨/١

٢ صحيح البخاري ٥٢ ، صحيح مسلم ١٠٧

القلب ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك؛ فإن ذلك يؤلم القلب، قال الله تعالى في التوبة ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم" (١)

فينبغي لكل عاقل أن يسعي وراء صلاح قلبه باجتهاد في الطاعات، واجتناب للمحرمات وجهاد في الله، ويدخل في ذلك طاعة الله فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر؛ فالإنسان إن فتر عن ذلك ضل عن الطريق، قال لقمان لابنه: "يا بني إن الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون؛ فإن فتر سائقها ضلّت عن الطريق، وإن فتر قائدها حرنت، فإذا اجتمعا استقامت، إن النفس إذا أطمعت طمعت، وإذا فوّضت إليها أساءت، وإذا حملتها على أمر الله صلحت، وإذا تركت الأمر إليها فسدت؛ فاحذر نفسك، واتهمها على دينك، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها، ولا بُدّ له منها. وإن الحكيم يذلّ نفسه بالمكاره حتى تعترف بالحق، وإنّ الأحمق يخيّر نفسه في الأخلاق: فما أحبّتها منها أحبّ وما كرهت منها كره" (٢)

إن المتدبر لآيات القرآن في نعت المنافقين، يعرف كم أن المؤمن سعيد برحمة الله، فأبي حياة يعيشها المنافق، وقلبه يتقلب في نار النفاق والتلون والتخبط، إن التمتع بالنعيم يبدأ من القلب، والسعيد هو السعيد بالله، فما أوحش البعد عن المعبود بالعصيان وكفر النعم، فيمن سيستعين المنافق وعلى من سيتوكل، فلا نشك لحظة بعد ذلك في أن المنافق تاجر خاسر. (٣)

وقف أعرابي أمام طبيب وهو يصف الأدوية؛ فقال الأعرابي: أعندك دواء لداء القلوب يرحمك الله، فأوماً الطبيب برأسه إلي الأرض، وأخذ يفكر في الأمر، ثم قال له: اسمع دواءً لو عملت به كان الشفاء بإذن الله: خذ عرق الفقر، وروح الصبر، وامزجها بدقائق الفكر، واجعل معهما شيء من التواضع والخشوع، ثم دق المخلوط بمهراس التوبة والخضوع، وبله بالدموع، وضعه في وعاء التذلل إلي الله، وأوقد تحته نار التوكل علي الله، وقلبه بمعلقة الاستغفار، حتي يظهر عليه زبد التوفيق والوقار، وانقله إلي أنيه المحبة، وبرده بهواء المودة، وضعه بمصفي الأحزان، واجعل معه رقائق الإيمان، وامزجه بالخوف من الرحمن، ودم علي ذلك ما عشت من الأيام، وإياك أن تقترب في أيام دوائك شيء من الآثام، وتجنب الرياء، والبس لباس الحياء، واشدد علي قلبك بالصدق والوفاء، وإياك أن تدخل بيتك

١ أمراض القلوب وشفائها ٤/١

٢ ذم الهوي لابن الجوزي ٤٢/١

٣ نقل من أرشيف اهل التفسير بعنوان تدبر سورة البقرة على ضوء المعاني التي وردت في سورة الفاتحة،

برابط <http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=60>

إلا من باب التوبة والصفاء، فإذا داومت علي هذا الدواء، صفي قلبك بين القلوب، وزالت عنه أوجاع الذنوب .

ومن صفاتهم : الكذب .

لما نفي الله تعالى الإيمان عن هؤلاء المنافقين لما ذكره من خداع سلوكهم، وظن فاسد في اعتقادهم، ختم الآية بقوله " **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)** " لكن لماذا ختم الله الآية بصفة الكذب علي الخصوص ؟ ذلك لأن مدار النفاق كله علي الكذب؛ فإذا كان الأصل في الكذب مخالفة الباطن وقلب الحقائق لأغراض شخصية ذنيئة ، كذلك النفاق ، ثانيا : أن الله تعالى لما نفي الإيمان والتصديق عنهم وصفهم بما يقابل هذا التصديق وهو الكذب وفيه إشارة أن الكذب أفة من أشد العيوب، وهو علة يلزمها فساد القلوب " **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)** " ولما ذكر النبي - صلي الله عليه وسلم - من صفاتهم كان أول ما ذكر " إذا حدث كذب " .

الكذب إخوة الإيمان مرض من أشد أمراض القلوب؛ قال عنة أبو علي مسكويه^(١) - رحمه الله : إن الصدق والكذب يجريان من النفس مجرى الصحة والمرض لأن الصدق له صحة ما ، والكذب مرض ما . وأيضا فإن الصدق من الخبر يجري مجرى الصحة، والكذب منه يجري مجرى المرض .

ولقد كان من أولي صفات المنافقين الكذب كما نص عليه النبي - صلي الله عليه وسلم- لأن الكذب مسلك خفي دقيق، وهو ذلة القلم ومذلة القدم ، يتعرض له الإنسان ولو تعدد أن لا يفعله، وسئل الإمام أحمد عمَّن يقول لا آكل، ثم يأكل. قال: هو كذب، لا ينبغي أن يفعل ذلك.

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله : فالكذب أساس النفاق الذي بني عليه، كما أن الصدق أساس الإيمان. واستشهد بقول النبي - صلي الله عليه وسلم - " **إذا حدث كذب** " ^(٢)

فينبغي للإنسان أن يكون حريصا حتي لا يقع في مزالق النفاق؛ فيتغير حاله، ويتبدل اعتقاده، وينفي عنه الإيمان، ويصدق عليه النفاق والعصيان، فإنه مما لا يليق بالمؤمن أن

١ هو أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ

والأدب والإنشاء، وتوفي ٤٢١ هـ.

٢ مجموع رسائل ابن رجب ٣٥٦/١

يكون كذابا، ولقد سئل رسول الله - صلي الله عليه وسلم - أيكون المؤمن جبانا، قال: نعم،
أيكون المؤمن بخيلا، قال: نعم، أيكون المؤمن كذابا، قال: لا .^(١)

لقد حذر القرآن الكريم من هذه الأفة العظيمة، وشدد الله عليها حتى أنه نفي الإيمان عن
مقترفيها " **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٠٥)** " **النحل**
وجاء النبي - صلي الله عليه وسلم - يؤكد أن الكذب رأس الخطايا والذنوب، وهو أقرب
الطرق إلي النار وأقصرها " **وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار،
وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا** " ^(٢)

وللمنافقين مواقف مشهودة تجرؤوا فيها الكذب علي رسول الله - صلي الله عليه وسلم -
لإحياء البدعة، ونشر الفتنة، وتضليل الأمة، ووصل الكذب عندهم مبلغه إلي أن تقاولوه
علي الله؛ فكتبوا كتابه، وبدلوا كلامه، وكان هذا من جملة ما خادعوا به الله والمؤمنين،
ولأيته وقف عند هذا الحد عندهم، بل كان هذا من جملة اعتقادهم وظنهم، وما أحدثه الجلاس
يوم أن كذب علي رسول الله، وانكر مقالة الكفر التي قالها كان كافيا لكشف قلوبهم وبواطنهم
علي حقيقتها؛ فأنزل الله فيه وفي مثله " **يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ** " إلي قوله تعالي " **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا
وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)** " **التوبة .**

فصل منه : علامات المنافق .

أخبر النبي - صلي الله عليه وسلم - عن علامات المنافقين وصفاتهم، وبين أوصافهم، وعدد
مشاربهم، ووضح للمؤمنين مناهجهم، ولقد كان هذا كافيا لكشف خباياهم، ووضح
ضمايرهم، وتحذير المؤمنين من اعتقادهم ومسالكهم، وكان من جملة ما أخبر عنه النبي -
صلي الله عليه وسلم - : " **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ
خَانَ** " ^(٣)

١ شعب الإيمان للبيهقي / ٤٤٧٢

٢ صحيح البخاري / ٦٠٩٤

٣ صحيح البخاري / ٣٣

وقال - صلي الله عليه وسلم : «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَّعِيَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١)

بداية : كيف نوفق بين رواية الثلاث ورواية الأربع، ولماذا اقتصر النبي - صلي الله عليه وسلم - علي هذه الصفات المذكورة ؟

قال الطيبي : لا منافاة بين الحديثين لأن الشيء الواحد قد يكون له علامات فتارة يذكر بعضها وأخرى جميعها أو أكثرها .^(٢)

وقال الحافظ ابن حجر : وأقول ليس بين الحديثين تعارض؛ لأنه لا يلزم من عد الخصلة المذمومة الدالة على كمال النفاق كونها علامة على النفاق لاحتمال أن تكون العلامات دلالات على أصل النفاق، والخصلة الزائدة إذا أضيفت إلى ذلك كَمَلَّ بها خلوص النفاق .^(٣)

ومقصده - رحمه الله : أن هذه العلامات المذكورة ليست علامات على النفاق، بل دالة على النفاق؛ لنلا يلزم إطلاقها على كل من فعلها ولو لم يكن ذلك على سبيل الدوام وهذا خطي، لأنه لو لزم ذلك لكان كل من كذب فهو منافق، وهذا يتعارض مع ما ورد عنه - صلي الله عليه وسلم- فقد أباح الكذب في بعض المواطن، إذا فهذه العلامات دلالات على النفاق، وليست علامات على أصله؛ لذلك بين النبي - صلي الله عليه وسلم- ذلك " ومن كانت فيه خلة منهن " أي خصلة ثابتة دائمة كان منافقا، وإن لم يكن فليس بمنافق .

وأما اقتصاره - صلي الله عليه وسلم - علي هذه الصفات الثلاثة المذكورة " فإن المتأمل يجد أن أصل الديانة مبنية علي أصول ثلاث القول والفعل والنية فنبه النبي - صلي الله عليه وسلم - علي فساد القول بالكذب وعلي فساد الفعل بالخيانة وعلي فساد النية بالخلف "^(٤)

وإن كنت أري أن الاقتصار علي هذه الثلاثة يرجع إلي أن وقوع أي صفة منهن يلزم منه وقوع الصفات الثلاث؛ فإن خيانة الأمانة مثلا يلزم منه خلف الوعد، واجترأ الكذب؛ فقد ذكر الله من صفات المؤمنين فقال : " **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** (٨) " المؤمنون ، فلم يفرّد لكل صفة منها أية كما في الصفات الأخرى، بل جمعهم دون أن يفرق بينهم .

١ صحيح البخاري / ٣٤

٢ عمدة القاري / ٢٢١/١

٣ فتح الباري / ٨٩/١

٤ المصدر السابق / ٩٠/١

قال الإمام القرطبي رحمه الله : الخيانة : هي الغدر وإخفاء الشيء .

فإن تري القرطبي - رحمه الله - جمع في تعريف الخيانة الأمور الثلاث، وخفاء الشيء أصل الكذب.

ومن صفاتهم : عدم قبول النصح .

قال تعالى " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)** " البقرة .

ذكر الله تعالى في هذه الآية صفتان من صفات المنافقين العملية، وهي عدم قبول النصح بمخالفة الحق، والثانية ادعاءهم الصلاح وهم جذر الفساد وفيه من الكذب ما لا يخفي .

أما عن عدم قبول النصح فهذا من صفات المنافقين؛ إذا سمع النصح من غيره تراه يتذمر ويتضجر، ويود أن يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه، ويهدي إليه نصحاً في بعض أعماله، فإن مما أمر الله به من الدعوة إلي سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة مبني علي قبول هذه الدعوة وهذا النصح، ومن خالف ذلك فقد مرد علي مقاطعة الوحي، ومخاصمة الانبياء، ومعاداة الدين .

وكم ظلوم غشوم سره عمل...شر إليه ولاقى النصح عدوانا

ليس من الخير مقابلة النصح بالعدوان، بل إن قبول النصح وبذله، والإرشاد إلي ما فيه توحيد الكلمة خير معين للمسلمين، فالمرء إذا لم يقبل نصيحة الناصح كان راضياً عن نفسه، وإذا رضي عن نفسه عمي عن عيوبها، فلا يؤثر فيها نصح ولا ينفع معها إرشاد؛ لأن الغرور متحكم فيها والشهوات محيطت بها، فإذا أراد الله بعبده خيراً بصره بعيوب نفسه، فأصلحها واتهمها دائماً بالنقص، وطالبها بالكمال، حتى تلتحق بالنفوس الزكية والأرواح الطاهرة، وهكذا كان سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم- فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: " رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوب نفسي "؛ فإن تقبل النصح تكن من الفائزين، وإن رفضته رميت بملامة يخلد ذكراها في سجل المنافقين .

وعلي هذا فجميع خصال المنافقين وصفاتهم مبنية علي عدم قبول النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما هما إلا صورة من صور النصيحة؛ فهي من خصائص

الدعوة، ومن دعائم الاستقامة، وبها صلاح المسلمين عاجلا وآجلا، قال علي - كرم الله وجهه : " المؤمنون نصحة والمنافقون عَشَّةٌ "، وبترك هذا التناصح تمادى المنافقون في الغي، الامر الذي يؤدي إلي فساد في الارض لهذا وصفهم الله به " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)** " البقرة، لأنه ليس بعد ترك النصيحة إلا الفساد ظاهرا وباطنا " **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥)** " البقرة .

بترك هذا التناصح أبعد أولئك المنافقون، بعدما لووا رؤوسهم، وتمردوا علي الناصح ورفضوا نصيحته؛ علوا واستكبارا بغير الحق " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥)** " المنافقون ، فكانت عاقبة إعراضهم أن تملكهم الشيطان، وغلبهم الهوي؛ فعميت أبصارهم، وختم علي قلوبهم فهم لا يسمعون " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)** " النساء .

فكن صاحب الفهم مستجيبا للنصح، متقبلا للرأي، راضيا بعيوبك، فإن فعلت استوي حالك، واستقامت حياتك، فليس هناك أفضل من التواضع للنصيحة والاذعان للناصح، ولقد كان من فقه الشافعي - رحمه الله - قبول النصح؛ حتي أنه بين آداب النصيحة كي لا تنقلب إلي نوع من التوبيخ والفضيحة ، فقال :

تعمدني النصيحة بانفرادي ... وجنّبي النصيحة في الجماعة .
فإن النصح بين الناس نوعٌ ... من التوبيخ لا أرض استماعه .
فإن خالفتني وعصيت أمري ... فلا تجزع إذا لم تعط طاعة!

ومن صفاتهم : الفساد في الارض .

لا زال المولي سبحانه وتعالى يتحدث عن صفات المنافقين بإظهار أمرهم، وفضح بواطنهم، وما هم عليه من الكفر والفساد، والفساد في الشرع يراد منه إما الفساد في الارض بالكفر والمعصية، وإما الفساد بالغي والبغي، وكلاهما من صفات المنافقين وظاهر غدرهم، والمراد بالفساد من هذه الآيات هو الفساد في الارض بالكفر والمعصية .

قال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** "، قال: يعني: لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية لله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة .^(١)

قال تعالى " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)** " وصفهم الله تعالى بالفساد في الارض، ولم يكن الوصف مباشرا بل جاء بعد نصح المؤمنين لهم " **لا تفسدوا في الارض** " وفي ذلك إشارة إلي أن المفسدين يكرهون الناصحين ، وقد أصمهم الهوي، وأعماهم العمي، عن مجرد الالتفات لكلام الناصحين ، فلم يجدوا طريقا إلا طريق الافساد، ومنافقة العباد، فذلکم المنافقون لم يستريحوا بالعيش إلا في ظل أجواء مليئة بالفساد، ومواطن تعج بالمنكر، ومع ذلك ففسادهم يخفي علي كثير؛ لأن فساد المنافق يخفي علي الناس بكفره ومعاصيه سرا، فصار كالذي يخدعك - يظهر لك وجها صالحا وهو في الاصل فاسق، لهذا عذبهم الله مرتين " **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ** " التوبة .

قال ابن القيم : فسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون، : " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** " إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون "^(٢) ولقد كان كفر المنافق فسادا؛ لأن " **المنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لا**

١ تفسير ابن كثير ٤٨/١

٢ مدارج السالكين ٣٥٧/١

حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته الأولى لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح" (١)

أعلم أخي الحبيب أن المعصية ومن جنسها الكفر؛ فساد في الارض عظيم، وشؤم علي الناس لا العاصي وحده، وما مُنعنا الخير إلا لوجودهم بيننا، وهم قوم يبارزون الله بالمعصية ولا يباليون بالكفر وقد رضوا ببيئة الفساد والفسق، فحق علينا أن نعلم السيئة، وتتنزل البلايا قال تعالى: **" وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) " الأفعال، أي: فتنة لا تصيب الذين ظلموا فحسب بل تصيب الذين ظلموا وغيرهم ممن يري الفساد ولا ينكره، وقال سبحانه: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) " الأفعال .**

فانظر كيف رفع الله العذاب عن أمته - صلي الله عليه وسلم - لوجوده بالطاعة بينهم، وكيف كان الأمان بالاستغفار بعده؛ فإذا رفع الامنين فشؤم المعصية، ووباء الذنب لا غير .

ذكر ابن قدامة - رحمه الله - في التوابين : وروي أنه لحق بني إسرائيل قحط على عهد موسى - عليه السلام - فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله! ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفا أو يزيدون، فقال موسى - عليه السلام -: إلهي! اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع، والبهائم الرتع، والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشعا، والشمس إلا حرارة.

فأوحى الله إليه: فيكم عبد يبارزني منذ أربعين سنة بالمعاصي فناد في الناس حتى يخرج من بين أظهركم فبه منعتكم.

فقال: موسى: إلهي وسيدي! أنا عبد ضعيف، وصوتي ضعيف، فأين يبلغ وهم سبعون ألفا أو يزيدون؟ فأوحى الله إليه: منك النداء ومني البلاغ.

فقام مناديا وقال: يا أيها العبد العاصي الذي يبارز الله منذ أربعين سنة! اخرج من بين أظهرنا فبك منعنا المطر.

فقام العبد العاصي فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير أحدا خرج؛ فعلم أنه المطلوب فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتضحت على رؤوس بني إسرائيل، وإن تعدت

معهم منعوا لأجلي؛ فأدخل رأسه في ثيابه نادما على فعاله، وقال: إلهي وسيدي! عصيتك أربعين سنة وأمهلنتي وقد أتيتك طائعا فاقبلني فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القرب.

فقال موسى: إلهي وسيدي! بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد؟ فقال: يا موسى! سقيتكم بالذي به منعتكم.

فقال موسى: إلهي! أرني هذا العبد الطائع فقال: يا موسى! إني لم أفضحه وهو يعصيني أفضحه وهو يطيعني؟!!

ومن هنا فاحذر مجالستهم؛ فعن أنس عن أبي موسى قال: " ومثل جليس السوء كصاحب الكير إن لم يصبك من ناره أصابك من دخانه"^(١)

ومن صفاتهم قول الله فيهم: ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

السفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: " **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** " النساء^(٢)

وقولهم " **أنؤمن كما أمن السفهاء** " جدال مع المؤمنين في حقيقة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، مما يؤكد كفرهم وفسادهم لأن السفيه جاهل يجادل عن رأي ضعيف لا عن معرفة بمواضع المصالح والمضار .

فلو كان هذا المنافق عالما بما ينفعه محيطا بما يصلحه حاذرا مما يضره لم يكن من جملة المنافقين؛ فإنهم يجلسون حيث تأمرهم أحلامهم وترغب فيه نفوسهم، يتناولوا بسفهمهم علي المؤمنين، ويؤكدوا كفرهم بالاستهزاء بهم، ولا تزال هذه الطائفة عمياء لا تبصر، صماء لا تسمع، طمست بصائرهم، وفسدت عقولهم مما ران علي قلوبهم من سوء أخلاقهم؛ حتي صارت قلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي أذانهم وقراء، بلغ بهم السفه إلي أن عجزوا عن تمييز ما ينفعهم مما يضرهم، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش اللحم " **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ**

١ أبو داود (٥١٧)

٢ تفسير ابن كثير ٤/٩١

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) " الفرقان ، لهذا رد الله قولهم بالسفه كأنهم لم يعقلوا القول قبل أن يقولوه، ولم يبصروا الرد قبل أن يُخرجوه " أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ " البقرة .

ذكر ابن كثير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى " **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) " الأهل ، قال : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح .^(١)**

ومن صفاتهم : أنهم يتقلبون بأكثر من وجه .

والحقيقة أن هذه حقيقة النفاق؛ فالأصل في المنافق أن يكون له أكثر من وجه يعيش به؛ فإذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم علي طريقتهم وأنهم معهم، وإذا خلوا إلي شياطينهم من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار الباطل؛ قالوا : إنا معكم على عقيدتكم وملككم؛ فكشف القرآن عن هذا التلون، وهذه الذبذبة؛ فقال سبحانه : **" وَإِذَا نَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) " البقرة .**

وهذا الوصف جاء في المنافقين، وقد اختص ببعضهم، وحكي بصيغة الماضي ليكشف عن أمر هام، ونكتة بالغة، قال عنها صاحب المنار في تفسيره : **" وحكي بصيغة الماضي ، ليكون كالتصريح بتوبيخ تلك الفئة من هذا الصنف، التي بلغت من التهلك في النفاق، والفساد في الأخلاق أن تظهر بوجهين، وتتكلم بلسانين، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف "^(٢)**

وهذا التلون حرم علي المؤمنين؛ لأن المبادئ الصحيحة تقتضي من الإنسان أن يكون حرا في فكرة ثابتا علي مبدئة صادقا في فعله، هكذا كان أنبياء الله الذين تمسكوا بالحق ودافعوا عنه حتي مع أشد الظروف وأحلك المواقف، لم يتزحزحوا ولم يضعفوا ولم يتركوا مبادئهم، **"وَكَايُنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) " ال عمران ، أما الذي يتخذ النفاق منهجا**

١ تفسير ابن كثير ٢/٢٨٥

٢ تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ١/١٣٦

وتقية؛ فإنه لا شك بعيد عن هذه المبادئ الإيمانية وليس أهلاً للحق حتى يتمسك به، وصدق القائل :

ولا خير في ود امرئ متلون.... إذا الريح مالت مال حيث تميل

فبعض الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا في الجاهلية أشد الناس غلوا في معاداة الإسلام، ثم صاروا بعد ما تبين لهم الحق أشد الناس دفاعاً عنه وتفانياً في خدمته، ولم ينافقوا في الحالة الأولى ولا الثانية، لأنهم كانوا من أهل المبادئ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "تجدون الناس معادن؛ فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية قبل أن يقع فيه، وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"⁽¹⁾

غير أن هذا النفاق يتعارض مع الاستقامة التي أمرنا الله أن نكون عليها، ولما سئل عمر - رضي الله عنه - عن الاستقامة، قال: " أن تستقيم علي الأمر والنهي فلا تروغ روغان الثعالب"، ولقد كان هذا التقلب أصل المنافق لأنك لا تدري علي أي وجه هو أمتع المؤمنين أم مع زعمائه من اليهود وإخوانه من المنافقين، وشتان بين هذا وذاك؛ فلا يجتمع الإنسان بالمؤمنين والمنافقين ويكون علي الصواب.

فلما لقي المنافقون الذين آمنوا بقولهم أمناً، ثم تحولوا وانصرفوا إلي شياطينهم؛ تغير قولهم وتقلب وجههم؛ فأظهروا النصر لزعمائهم والموالات لهم، وأكدوا ذلك باستهزائهم بالمؤمنين، لأن قولهم عندما خلوا بشياطينهم إنا معكم هو مثل ما قالوه للمؤمنين لكن يفرق بين الحقيقة وزعمهم، قولهم " **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** " .

وهذه هي صفة المنافقين؛ مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ يأتون المسلمين بوجه ويأتون الكفار بوجه آخر، قال ابن القيم - رحمه الله : لكل منهم وجهان، وجه يلقي به المؤمن، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون " **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون** " ⁽²⁾

١ رواه البخاري(٣٤٩٣)

٢ مدارج السالكين ٣٥٧/١

ومن صفاتهم : الاستهزاء بالمؤمنين وعدم العناية بهم .

وأصل الاستهزاء: الاستخفاف وعدم العناية بالشئ في النفس، وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضا تهكما⁽¹⁾، فمن كان شأنه العبث بالناس والاستهزاء بهم؛ أصاره الله إلى حالة يُعبث به فيها، ويستهزأ منه؛ فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة، وقابلهم عليها بما هدم به بنيانهم، وفضح بهتانهم، فقال: الله يستهزئ بهم.

والاستهزاء من الكفار حقيقة، وتعليقه بالله عز وجل مجاز - جل ربنا وتقدس - عن الاستهزاء، بل هو الحق ومنه الحق⁽²⁾.

وهذه الآية تقرر أن الاستهزاء صفة من صفاتهم؛ قال سبحانه : **" الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) "** التوبة .

فهذه صفة فيهم لا يسلم منهم أحد حتي المطوعين الذين يخرجون الصدقات، ولقد نفي النبي - صلي الله عليه وسلم - الإيمان عن المستهزئين وبين أن هذا الخلق الذميم لا يليق بهم، فقال **" ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا بالفاحش، ولا بالبغيء "**⁽³⁾

ولكن كيف استهزأ الله بهم كما استهزأوا بعباده المؤمنين؟، وقع ذلك بإمهال الله لهم مدة ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فسمي الله امهالهم استهزاء بهم؛ لأن في الامهال استدراج، أو أن الله استهزأ بهم فجزاهم بالعقاب على استهزائهم؛ لأنه لا يُعاقب إلا المذنب فوقع عليهم العقاب لاستهزائهم .

ولقد كان حاصل ما ذكره الله من صفاتهم؛ أن عاقبهم الله عليها أشد العقاب، وهذا بداية الاستهزاء بهم فبين الله كساد تجارتهم وفساد عقيدتهم، وما زادهم الله به طغيانا وكفرا؛ فقال من جملة عقابه لهم : **" الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) "** فالاستهزاء واقع بهم في الدنيا والاخرة؛ فأعني الله لذلك قلوبهم وطمس بصيرتهم وأظلم فطرتهم، ثم كشف الله حقيقة أمرهم وهو من جملة الاستهزاء بهم **" أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦) "** البقرة .

١ تفسير المنار ١٣٧/١

٢ تاج العروس ٩٨/٨

٣ رواه الترمذي ١٩٧٧ وصححه الألباني .

من الحق أن لا يفسر الشراء بالاستبدال، بل الحق أن يقال اختاروا الضلالة علي الهدى لكنه سبحانه عبر بالفعل اشترى ليبين الله مدي اقبالهم علي الضلالة كأنهم يسارعون لشرائها؛ فلما كان المنافقون معرضين عن الدعوة متبعين غير هدى الله، وذلك نزولاً لرغباتهم وشهواتهم، التي حالت دون وصول قلوبهم للحق، فهم يستهزءون بالمؤمنين ويقولون آمنا، وهي تلك العبارات التي يعتقدون أنها تنطلي على النبي وأصحابه، ونسوا أن الله معز جنده، وهازم أعداء الدعوة في كل زمان ومكان؛ فوصفهم الله بعدم الهداية، والوصف به غالباً لا يكون إلا لمن عمي قلبه وسفه عقله وضل معتقده، فهو كمن دفع أمواله لشراء شيء ثم وجد ذلك الشيء تالفاً فهو خاسر، كمن بذل جوهرة وأخذ عنها درهماً، فبئست التجارة وبئست الصفقة، هكذا حال المنافقين .

قال العلامة السعدي : أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر، كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم (1).

وقد أكد الإمام السعدي - رحمه الله - سفههم فقال : وإذا كان من بذل دينارا في مقابلة درهم خاسرا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن عاليها؟(2)

كانت هذه الآية نتيجة سفههم، وأنهم لا يستطيعون أن يميزوا بين الضلالة والهدى؛ فصار حالهم كمن " **يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَى وَلِبَيْسِ الْعَشِيرِ (١٣)** " الحج ، فوقع عليهم العقاب بما قاله قتاده : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.(3)

لأنهم في الاصل طلبوا تجارة بائرة، وبضاعة فاسدة لا تصلح لدينهم فكيف بها في الاخرة، قال ابن القيم - رحمه الله : خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقته

١ تفسير السعدي ٤٣/١

٢ المصدر السابق .

٣ تفسير ابن كثير ٥١/١

بين سفن الهالكين" أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين " البقرة (1)

ثم إن الله ضرب المثل وكان غايةً في الاستهزاء بهم؛ ليكشف الله عن مدي امهاله لهم، وحلمه عليهم؛ لكنهم لم يفهموا هذا فليس لهم قلبا يعيه ولا عقلا يستوعبه، قال سبحانه : " **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَعْضِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) " البقرة.**

شبههم الله برجل استوقد نارا لكي يبصر طريقه، ويضيئ مكانه؛ فلما أطمأن لهذا النور الذي أوقده؛ إذا به يفقده فجأة ويذهب الله بنور بصره فأعماه الله وأضله، وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ فذلك تماماً حال المنافقين الذين رأوا الآيات القرآنية والبيانات والهدى، فرأوا نور الهداية، ثم انتكسوا وكفروا فعادوا إلى ظلمات الكفر والنفاق .

وقد وقع استشكال بين كثير من الناس في فهم هذا المثل الذي ضربه الله فيهم، وسببه هو التعبير الاول " بالذي استوقد " الذي يدل علي المفرد، ثم قال سبحانه " ذهب الله بنورهم " وهي صيغة للجمع؛ فإلي ما ترجع هذه الضمائر ؟

هناك تفسير آخر لهذه الآيات يدفع هذا الإشكال " فمثلهم أي مثل أولئك المنافقين من موقف الدعوة النبوية كمثل رجل اجتهد في إيقاد نار، فلما أفلح في ذلك وأضاءت النار ما حوله...، فالرسول - صلي الله عليه وسلم - هو ذلك الرجل الذي اجتهد في إنارة ما حوله بنور الهدى، فلما أفلح في ذلك وأنارت من حوله البلاد بنور الهدى، واستجاب له الناس من حوله، كانت المفاجأة أن ذهب الله بنور هؤلاء المنافقين الذي خلقه فيهم ليهديهم؛ من عقل وفطرة وفرقان يجده من لم يدنس بالمعاصي ... الخ. فعبر في الأولي بالذي وفي " بنورهم " بالجمع لأنه عائد علي المنافقين، وليس الإشكال إذن في نور الوحي، فقد أضاء وأنار، وإنما الإشكال في العمى الداخلي الذي نتج عن معاصيهم ونفاقهم.

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغالبهن فيقتحمن فيها، فأنا أخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها"⁽²⁾

١ مدارج السالكين ٣٥٧/١
٢ رواه البخاري (٦٤٨٣)

من الأولي أن ننظر للآيات نظرة تفسيرية بسيطة ندرك معها المعنى الذي أراده الله سبحانه؛ لأنه في ضرب الأمثال حكم بالغة، ونكت عظيمة، وإن كنا جهلنا الحكمة فجهلنا لا ينفي وجودها؛ فلا تتعجب كيف أجاز الله هؤلاء المنافقين بهذا النور والهدى فلم يهتدوا؟ ذلك لأن كثرة المعاصي تُذهب النور الداخلي للإنسان وهو فطرته؛ فيعجز القلب عن إدراك النور الآخر وهو نور الوحي؛ فصارت قلوبهم مريضة لأنه لا بد من إرسال واستقبال، ونور الوحي وحده ليس كافيا لأن يدخل الإيمان قلوبهم، بل لا بد من قلب صالح لاستقبال هذا النور،

قال سبحانه: " **صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهَمٌّ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)** "

والحقيقة؛ أن هذا الوصف لا يكون إلا لمن لا فطرة له ولا قلب، والمتأمل يري أنهم مع ذلك لم يرجعوا لأنفسهم فيبصروا حقيقة ما في قلوبهم؛ فهم في غفلة من كلام النبوة، ونور الوحي، وقد تطابق هذا الوصف مع حال الكافرين في قوله تعالى: " **صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهَمٌّ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)** " البقرة ، والفرق أن هؤلاء المنافقين مع فساد قلوبهم وسوء فطرتهم وغياب عقلهم، لم يرجعوا إلي الحق لا عند استماعه ولا عندما جلسوا مع أنفسهم؛ أما هؤلاء الكافرين مع هذه الحالة المذكورة لم يعقلوا كلام النبوة، ولا نور الوحي لكنهم إذا رجعوا لأنفسهم ربما يعقلوا ذلك ويرجعوا؛ كما قال الله في الكفار من قوم إبراهيم: " **فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)** " أما هؤلاء المنافقون فلا .

حقا ؛ الوصف بالنفاق أشد وأطغي من الوصف بالكفر، ولا يزال أولئك المنافقين يمثلون خطرا علي الأمة الإسلامية من الكافرين المحاربين، ولعلك تدرك ذلك عندما تفهم المراد من المثل الذي ضربه الله في قوله: " **أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)** يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) " البقرة .

لا يفهم هذا المثل إلا أن يفهم المثل قبله؛ فلما وصل هؤلاء المنافقين إلي هذه الحالة التي وصلوا إليها " **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** "، بين الله في هذه الآية حال فريق منهم، يمشون في العراء، يتصيب عليهم المطر، فيه ظلمات بعضها فوق بعض، مع إرعاد الرعد، وشدة البرق، والصواعق المهلكة، وأصوات الرياح المخيفة التي تجعلهم يدخلون أصابعهم كلها في آذانهم لا أطرافها فحسب، وذلك حذر الموت، وهم في هذه الحالة يكاد البرق

يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم وقفوا مكانهم لم يتحركوا، ينتظرون الموت يأتيهم، أو الساعة والساعة أدهي وأمر .

وفي هذا المثل عبر الله بالصيب وهو المطر عن الوحي؛ فالمطر عادة ما ينزل بالخير فيصيب موضعه؛ فكذلك الوحي ينزل بالخير والهدى فيصيب القلوب المستقبلة لهذا النور التي لم تتدنس بدنس النفاق بعد؛ أما القلوب التي مردت علي النفاق فإن الله عاملها من جنس عملها؛ فصاروا يرون النور ظلمة، ويرون الوحي الذي يهدي إلي الحق وإلي طريق مستقيم كالمطر الصباب الذي يؤدي إلي الهلاك لمن سار فيه "وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْحَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) "القصص . وهذا المعنى تؤكد آيات القران الكريم، قال سبحانه: " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا " الاسراء .

فالحقيقة أن القران لا يزيد نفورا أو طغيانا، بل يزيد القلوب تصديقا وإيمانا؛ لكنهم لما عرضوا عن التذكرة ورفضوا هداية القران لم يزيدهم إلا نفورا كما بين الله ذلك في أواخر التوبة " وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدْتَهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَنْبِشُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَأَدْتَهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) " البقرة .

والظلمات هي ظلمات الطريق الذي ساروا فيه، من كفر ونفاق كظلمات هذا المطر الصيب، وصار القران وما فيه من آيات الوعد والوعيد بمثابة هذا الرعد الذي يقرع أسماعهم، وقد وضعوا أصابعهم في أذانهم من هول الوعيد الذي ينتظرهم، وأما الايمان الذي أزعموه في الدنيا، وظنوا أنهم يخدعون به الله والذين آمنوا كالبرق أنار لهم فمشوا فيه إذا أضاء، وإذا أظلم وقفوا ولم يتحركوا؛ فهم كذلك حين زعموا الإيمان وخادعوا به المؤمنين ساروا في كيدهم ومكرهم إذا خلوا إلي شياطينهم؛ لكن إذا انكشف أمرهم وفضحت خططهم؛ وقفوا ينتظرون الموت؛ لان قولهم أننا كان تقية عصمت به دمائهم وأمالهم لكنه قول كاذب، وزعم باطل، لم يسمح لهم إلا العيش فترة قصيرة، ولولا امهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقت فهو محيط بهم إنه على كل شيء قدير .

ثم عاملهم الله يوم القيمة من جنس أعمالهم في الدنيا، وحاسبهم عليها - سبحانه - بالاستهزاء بهم، وخداع المؤمنين لهم؛ فقال سبحانه : " يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ

فَتَنَّتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ
(١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (١٥) " الحديد .

ألا فليعلن الله النفاق؛ ألا سحقا سحقا .

مَنْ عاذري من معشرِ الفساق ... حلت عليهم لعنة الخلاق .

يا بائعينَ فضيلةً برذيلةً ... إخوانَ كلِّ نذالةٍ ونفاقٍ .

والله ما تستوونَ عندي ذرة ... بل جل عنكم متقلي وبصاقي .

لو كنتمُ شجرا لكنتم شوكها ... مفقودة الأثمار والأوراق .

لا تحسنون سوى المطاعن والأذى ... وسفاسفِ النسوانِ في الأسواق .

لم يبخلوا - حمقى - وجاءوا طبقوا ... بالفعل كل بلية ونفاق .

ومن صفاتهم : حسن القول .

فمن ظاهر صفاتهم جذب أذان السامع بأفصح العبارات وأعذب الجمل؛ فهم يتخذون من الكلام المعسول وسيلة لجلب القلوب؛ لكون المدح أحب الأشياء إلي الأذان، وغايتهم من هذا ضرب القلوب وإثارة الفتنة وتهيج العواطف والمشاعر، وقد جمع الله هذه الصفة في قوله :

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ (٢٠٤)

"البقرة

فالمؤمن الصادق في إيمانه، المخلص في عبادته؛ يتسلل إلي القلوب بالنصيحة علي وجهها الصادق تحمل معاني الترهيب والترغيب ممزوجة بالإقناع السليم؛ فتسمع في كلامه آيات القرآن وأحاديث الرسول - صلي الله عليه وسلم - مما تجد فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما أهل النفاق فإنهم يتسللون إلي القلوب بالأساليب الماكرة وطرق الخداع، لتهيج العواطف وإثارة الخواطر فهؤلاء باستطاعتهم تحريف الكلمة، وإيقاع الفتنة، وإثارة الشبهة .

وهذا هو حال المنافقين الذين يخطبون فيوسعون في الكلام، ويتفصحن فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله، ودائما يدفعهم التكلف إلي الحلف الكاذب واليمين الأثم ، كما قال سبحانه : **" وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ "** ، والله يشهد أنهم أشد خطرا علي المسلمين، وأعظم ضرا من الأعداء المحاربيين؛ خاصة إن كانوا أهل علم بالدين ولسان فصيح، يستطيعون بذلك أن يفتنوا من يفتنوه عن دين الله، ويصرفوا حديثي الإسلام عن الإسلام، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : **" أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان "** .⁽¹⁾

وعن أبي إمامة - رضي الله عنه - عن النبي - صلي الله عليه وسلم - قال : **" الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق "** ⁽²⁾ قال الترمذي: والعي قلة الكلام، والبذاء: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام .

فالكلمة بها نجاة المؤمن، واللسان يصدق ذلك أو يكذبه؛ فهو رسول القلوب يحدث عنها بلا أو نعم؛ فإن كان خير فخيراً، وإن كان شراً فشرأ؛ فقد ذكر الله طوائف العالم الثلاثة وبين علو همهم ومدى مطالبهم؛ فذكر قول الكافرين **" فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) البقرة ،** وذكر قول المؤمنين **" وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) "** ثم ذكر الله قول المنافقين **" وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) "** ، قال العلماء : هذه الآية الكريمة في وصف حال المنافق، وهو من أدق وصف لحال أهل النفاق.

لهذا كان من النفاق تنميق القول، واصطفاء العبارات، واختيار الجمل ألطفها ، لكون ذلك حبيب إلي القلوب، مرهف للحس، تشد إليه أذان السامع، وبهذا يمكنك اختيار المنافق ومعرفته، فقد حبس عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الأحنف بن قيس مدة فلما رأى من فصاحته وجميل عبارته خشي أن يكون وراءهما نفاق، ثم تبين له شذوذ القاعدة في الأحنف فأطلقه ، وبهذا تقرر عندهم - رضي الله عنهم - أن من وجدوا فيه مثل هذا فهو منافق؛ لأن هذه الصفة غالبا ما تكون فيه؛ فهي بيان لعقيدة النفاق التي تجعل صاحبها يظهر مالا يبطن .

١ رواه أحمد عن عمر بن الخطاب ١٤٣

٢ رواه الترمذي ٢٠٢٧

ومن هنا جاء الذم الأكيد، والوعيد الشديد علي المادحين والمتملقين الذي جعلوا المدح طريقا للكبر، ومزرعة للعجب، ولا يدري المسكين أنه طريقه لسوق النفاق ومطيته إليه، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - وكان بحضرتة رجل مدح رجلا فقال : " ويحك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك " مرارا " إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلانا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا أحسبه، إن كان يعلم ذلك، كذا وكذا "(1)

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه من تركيتها، ويمنع من تصديق المدح لها، فإن للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح.

قال الشاعر: يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان .

فإذا سمح الإنسان لنفسه أن يُمدح ، وتابع على هذه بالشهوة، تشاغل عن الفضائل الممدوحة ولها عن المحاسن الممنوحة، فصار الظاهر من مدحه كذبا، والباطن من ذمه صدقا، وهذه هي مداهنة المنافقين أي مجاملتهم.

فالمداهنة التي هي من صفات المنافقين من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستتر باطنه، وفسرّها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضى بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداهنة بخلاف المداراة، فالمداراة من صفات المؤمنين، والمداهنة من صفات المنافقين .

قال ابن القيم : والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة هي التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحقّ أو تردّه عن الباطل، والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله وتتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.(2)

فالواجب ألا ينخدع المسلمون بهم، ولا بحسن حديثهم، وأن يُعرف أن هذا هو الظاهر فيهم، والغالب في وصفهم، قال تعالي : **" وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) "** محمد

وهناك مثل مصري يقول : أسمعُ كلامك أصدقك، أشوف أمورك استعجب - فهؤلاء المنافقون اغتروا بتملقهم، وحسن حديثهم؛ والباطن نفسه يكشف عن فسادهم .

١ صحيح مسلم ٣٠٠٠ .

٢ الروح لابن القيم ٢٨١ .

ومن صفاتهم : الفجور في الخصومة .

ذكر الله تعالى هذا الوصف الخبيث من جملة ما ذكره فيهم، وبين ما انطوي عليه الضمير، وتواري عنه الباطن، فقال سبحانه : **" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) "** فالذي قاله ذلك المنافق من الحسن في القول، والتنميق في الكلام، يتخالف مع ما في قلبه وهو في نفسه ألد الخصام .

وقد ورد الخصام في الآية علي معنيين أولهما : المعروف وهو المخاصمة والمقاطعة مع الفجور فيها ، والأخر الجدل بمعنى قوة المعارضة مع خصمه؛ فلا يغلبه أحد في إثبات ما يريد إثباته لا شك بالحيل الكاذبة والاساليب الماكرة، وقد لا يعجزه الخصم المسكين إلا هربا مقتنعا بجداله ملتبسا برأيه، وقد نهى الله عن الجدل كثيره، حتي وإن كان بالتي هي أحسن فقال سبحانه : **" وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " العنكبوت** ، فلم يقل سبحانه " وجادلوا أهل الكتب بالتي هي أحسن " فذكر السلب قبل الإيجاب عن طريق القصر دلالة علي أن كثرة الجدل يؤدي ضعف العقيدة وتذبذب الهوية، وإن كان بالتي هي أحسن .

لقد أتم الله علي هذه الأمة نعمته بأن جعلها أمة واحدة : يسود التكافل والتكامل أجزائها وأطرافها، وتصفو رُوح المودة أبنائها؛ فلا تلقي المسلمين إلا أمة متماسكة غير متباغضة لا مكان بينهم للشحناء ولا المباغضة؛ فقد شبههم النبي - صلي الله عليه وسلم - في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعي له أعضاء، والإنسان المسلم إذا خاصم أخاه وهجره، وبالغ في هجرانه؛ فكأنما عضوين تخاصما، وتنافرا عضوين وتباعدا **" وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) " الحجرات** .

وقد النبي - صلي الله عليه وسلم - نهى أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث، وبين النبي - صلي الله عليه وسلم - مدة ذلك إذ أنه لا يليق بالمؤمن أن يهجر أخاه أصلا، إنما كان الهجر مدة ومهلة حتي تصطالح النفوس وتصفو القلوب، وفي قوله - صلي الله عليه وسلم - " لا

يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث...." (1)، إطفاف جميل، ونكتة لافتة، حيث أن النبي - صلي الله عليه وسلم - وقّت الهجر بثلاث؛ لأن الله ينظر إلي عباده يوم الاثنين والخميس فيغفر لجميع خلقه إلا المشاحن والمتباغض فيقول سبحانه " اركوا هذين حتي يصطلها اركوا هذين حتي يصطلها " (2) فالإنسان إذا خاصم وهجر فوق ثلاث فإنه يضيع علي نفسه نظرة الله له يومي الاثنين والخميس لأن المدة وهي الثلاث هي المدة ما بين الخيس للأثنين ومن الاثنين للخميس.

وبحق تلك الأخوة السليمة والصداقة الإيمانية الحميمة؛ كان من حق المسلم علي أخيه إذا هجره فوق ثلاث أن يذهب إليه، ويقول : يا أخي أليس هجرك ثلاث كان عقابا لي؟ أليس هذا كافيا لك؟ وأن يبين له أنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث؛ فقد يكون صاحبه جاهلا فيبالغ في هجرانه، وهذا يخشي عليه النفاق؛ لأن المسلمين أمة متماسكة حتي وإن كان ذلك في أحوال الهجر والمباعدة .

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : "إن أبغض الرجال إلي الله الألد الخصم" (3)

قال أهل العلم : " من خاصم مسلماً ثم فجر في خصومته، فقد أشهد الله على ما في قلبه أنه فاجر منافق " .

وقد ذكر البخاري عن عوف ابن مالك بن الطفيل أن عائشة حدّثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أو لاحجرن عليها. فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو الله عليّ نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدا. فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة؛ فقالت: لا والله لا أشفع فيه أبدا، ولا أتحنث الي نذري؛ فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وهما من بني زهرة، وقال لهما: أنشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإنها لا يحل أن تنذر قطيعتي. فاقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلنا؟ قالت: نعم ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير

١ صحيح البخاري (٦٠٧٣)

٢ صحيح مسلم (٢٥٦٥)

٣ صحيح البخاري (٢٤٥٧)

فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكي. وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدها ألا ما كلمته وقبلت منه، ويقولان لها: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عما قد علمت من الهجرة فانه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال. فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج؛ طفقت تذكرهما وتبكي وتقول: إني نذرت والنذر شديد؛ فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تبل بدموعها خمارها - رضي الله عنها وأرضاها (1).

ومن صفاتهم : الفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل .

ذكر الله تعالى من صفات المنافقين الفساد في الأرض، وقد أشار إلي ذلك آيات قرآنية كريمة، قال سبحانه : **" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) "** البقرة .

وقد تقدم ذكر هذه الآيات؛ لكن هذا الفساد الذي ذكر فيها كان فساد الباطن، وهو الفساد في الأرض بالكفر والمعصية؛ أما الفساد هنا فهو فساد الظاهر، وهو الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، قال سبحانه : **" وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) "** البقرة .

والمنافقون أصحاب المبادئ الدنيئة والهمم الوضيعة، يدفعهم نفاقهم إلي الفساد في الأرض بمحاربة الإسلام بالكفر والمعصية من جهة، ومحاربة المسلمين بالفساد في الأرض بالتخريب والهدم من جهة أخرى .

فلقد ذم الله تعالى الفساد في الأرض بأنواعه، وضيق علي المخربين؛ لأن هذا الفعل الشنيع لا يتناسب مع الفطرة، ولا مع الشرائع السماوية، غير أن العقلاء كلهم يمقتون هذا الخلق الدنيء وهذا الوصف الخبيث؛ فلا تجد عاقلا يرضي العيش وحوله المفسدون في الأرض يأكلون فيها، وينقصون من أطرافها إما بالفساد ظاهرا أو باطنا، قال تعالى : **" إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (٢٦) "** غافر انظر إلي هذه الآية التي أجزاها الله علي لسان الطاغية فرعون، وهو أول المفسدين وأشد المخربين، ماله يأبى الفساد في

قومه أن يراه؛ فكيف بالصالحين من عباد الله الذين يعيشون في سلم الإسلام وفي بيئة الإيمان؛ لهذا عذب الله المنافقين بفعلهم وقذف الرعب في قلوبهم، وكان فسادهم فسادا ومقتنا علي أنفسهم وبهذا كان عباد الله المؤمنون هم أهل الصلاح الذي قرنه بهم في كل دعاء ونداء، وهم أصحاب المبادئ العليا والهمم الإيمانية، التي تدفعهم إلي الصلاح في الارض ظاهرا وباطنا صلاحا بالطاعة والإيمان أو بالبناء والتعمير، وهذه الزمرة الإيمانية حاشاها أن تستوي مع أولئك المنافقين المفسدين في الأرض " **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ** " ص .

والمراد بالحرث والنسل : أي الزرع والحيوانات، وقيل المراد بالحرث هم النساء لقوله " **يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** " والمراد بالنسل هم الأولاد ، فيكون المراد أن هؤلاء المنافقين يفسدون في الأرض بهلاك حرثها وزرعها، وما يترتب عليه من فساد الحيوانات، وما فيها من قوام البشرية، وكذلك لا يستبعد فساد الأولاد بالتربية الخاطئة، والنشأ الخبيث، وبه يحصل فساد النساء وفتنتهم بحلو الحديث، وفورة الجسد، وبه تحصل الأذية فتسود الفتنة وتنتشر الرزيلة وتعم البلية .

ولقد أعقبهم الفساد عاقبة سيحون بشرها أبدا، قال سبحانه : " **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥)** " معناه أن الله تعالي لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين، ولا يحب الأرض التي يكون فيها الفساد؛ فعبّر الله عن ذلك بالمصدر وهو الفساد ليندرج تحته كل مشتقاته .

قال مجاهد: إذا سعى في الأرض فسادا، منع الله القطر، فهلك الحرث والنسل، " **والله لا يحب الفساد** " أي: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك .^(١)

ولما كان الفساد في الارض يتخالف مع تقويم الفطر، جاءت الشرائع السماوية تدمه زمانا ومكانا؛ فقال الله حكاية عن الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا يحذرون أقوامهم من هذا الفعل الخبيث " **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) البقرة** ، وقال سبحانه " **فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) الاعراف** ، وقال سبحانه " **وَيَاقُومِ أَوْفُوا الصَّالِحِينَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) الاعراف** ، وقال سبحانه " **وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي**

فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (٢٤٢) " الاعراف ، وقال سبحانه " قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) " العنكبوت

ولقد جاء الأمر في القرآن الكريم بجهاد المنافقين والإغلاظ عليهم، ومن جهادهم أن يحاربوا لفسادهم؛ فقد وردت أیه المحاربة عامة في كل من ظهر منه الفساد ونزع أمن البلاد وسلب استقرار العباد؛ قال سبحانه: " **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) " البقرة .**

ومن صفاتهم : التكبر والتعالي .

قال تعالي : " **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)**" البقرة ، هناك علاقة قوية بين الفساد في الارض، والتكبر فيها، ولعل هذا هو ما يريبه الفساد في نفس صاحبه؛ فإنك لا تلقي مفسدا في الارض إلا متكبرا، وهو يري الصواب في فعله والصلاح في سعيه، حتي أنه يبطش البطش بمن ينصحه أو يكشف له عن ظاهر فساده " **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) "**

ذكر الله سبحانه فساد هذه الطائفة ما بين الحال الذي توصلوا إليه، والعاقبة التي ألت بهم، لقد صار من أمره أنه إذا قيل له اتقي الله أخذته العزة بالإثم ، قال الامام السعدي : " ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و " أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ " فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين "(1)

وكلامه - رحمه الله - يفهم منه مضمون الآيات القرآنية التي أشارت إلي نبأ قارون المتعالي الذي تعالي علي قومه، وتكبر علي ناصحه " **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) " القصص ؛** فقال كلمة الكفر تعاضم بها فساده، وتمادي بها عصيانه " **إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي "** وقد فتن به قومه، وأصبح الذين في قلوبهم مرض يتمنون مكانه ، لكن المؤمنون عبأء الله والذين أوتوا العلم منهم لا تغرهم المظاهر،

^١ تفسير السعدي ٩٣/١

ولا تفتنهم النعم، فهم عباد متناصحون وإخوان متماسكون: " وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) "

وكذلك الحال مع فرعون الطاغية " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) " **التقص**، فقد بدأت الآية بالكبر وختمت بالفساد .

ولا يشترط الفساد حتي يكون الكبر وصف للمنافقين، بل إن الكبر وصف لا ينفك عنهم بحال، دفعهم إلي مقولة الكفر والاستهزاء بالمؤمنين " **قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ** "

فالكبر خلق ذميم ينشأ عنه الكفر، والفسق، والنفاق، والعجب، وصاحبه لا يبالي بعمله، ولا يشعر بفساده، بل إنه وما فيه حاله: مدعاة لعواقب الليالي، وعرضة لغضب الله ولعنته؛ لذلك كان الصالحون يخشون هذا المرض الفاتك إلي أن قتلوا غرورهم، وأخضعوا كبريائهم، حتي دانت نفوسهم واستقامت أمورهم؛ فأصبحوا بتواضعهم جبر القلم، وأحبار الأمم، علموا أن الكبرياء لا يورث إلا ذلا فهانت عليهم نفوسهم .

روى قيس بن حازم : أن رجلا أتى به للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأصابته رعدة، يعني خوفا من النبي؛ فقال له - صلى الله عليه وسلم - : هون عليك.

قال ذلك - صلى الله عليه وسلم - حسما لمواد الكبر، وقطعا لذرائع الإعجاب، وكسرا لكبرياء النفس، وتذليلا لسطوة الاستعلاء ، قال له : " هون عليك فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد " (1).

فيا إخوة الإيمان حاذروا من أن تجدوا في أنفسكم لمعة الكبر، بل عليكم بإجبار النفس علي التذلل، وتمرينها علي الشقاء والسعي، والكد والكبح، فإن الكبر بريق زائف، ولن تنالوا جماع الخير إلا بحصول التواضع؛ قال تعالي " **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** " **الحجر**؛ فالمنافقون عميت أبصارهم، وطمست بصيرتهم، لأن الكبر أعماهم وهم بذلك يعصون الله بأول ذنب عصي به في السماء " **قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدْ لِيَشْرَ خَلْقَتُهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)** " **الحجر**.

١ سنن ابن ماجة (٣٣١٢)، والقديد : هو اللحم المملوح المجفّف في الشمس .

ومن صفاتهم : ما يقع من هذه الطائفة من الامور التي نهى الله رب العالمين عنها، والتي ذكرها الله تعالى في قوله : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ " (١١٨) " ال عمران

انظر كيف وصف - سبحانه - ما يقع من هذه الطائفة من الخبال والخذلان، وودادة ما يعنت أهل الإيمان، وظهور البغضاء التي محلها القلوب بترجمة الألسن عنها، وظهورها منها، وأن ذلك الذي تبديه الألسن من الأفواه إنما هو البعض، وما تخفيه الصدور أكبر! ثم ختم الآية بأن هذا البيان الرباني بالآيات القرآنية إنما يفهمه من يتعقل الأمور كما ينبغي، لا من كان غافلا بليد الفهم، ضعيف العقل فإنه يلتبس عليه صنيع هؤلاء المنافقة الذين يبطنون مالا يظهرون.⁽¹⁾

فهذه الصفات المذكورة في الآية صفتهم؛ فهم يتلونون ماكرين، ويمرون على المؤمنين غادين ورائحين، وقد لبسوا لباسهم، وتتكروا بمثل وجوههم، ليكونوا محل الثقة، ومرمي البصر، وشغل التفكير؛ فيتخذونهم بطانة مؤمنين بقدرتهم، واثقين في إخلاصهم وعقيدتهم، وماهم إلا قد وقعوا في مخايل خداعهم وحبائل مكرهم، وإذا ما قطع المنافق هذه الخطوة؛ فقد قطع كل المسافة التي تقربه لهدفه وتحقيق خبايا فكره، لهذا نهى الله عباده المؤمنين أن يتخذوا من المنافقين بطانة، وبطانة الرجل بمعنى وليجته وخاصته الذين يأتهمهم علي سره ويوليهم علي أمره ويكشفهم علي أهل بيته، وقد صاروا عنده محل ثقة وصحبة متناصحة، لا سيما صاروا بمثابة الخازن الأمين، والذراع اليمين، فإن كانت هذه البطانة من الناس صالحة حفظوا سره وراعوا شؤنه وتفانوا في خدمته ونصحوا للخير وأرشدوه للحق؛ وأما إن كانت البطانة بطانة سوء وتلون ونفاق وعصيان؛ والوه الخبال وعاقبوه النكال وأوردوه شر المال، وسرقوا ماله وضيعوا عياله وجعلوا أمره فرطاً؛ قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله " ⁽²⁾

١ الفتح الرباني من فتاوي الإمام الشوكاني ١١٥١/٣
٢ صحيح البخاري (٧١٩٨)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ " يعني من غيركم من المسلمين؛ لأن

المؤمنين إخوة بعضهم أولياء بعض لو صدقت نواياهم لكانوا قبضة واحدة، وجماعة مناصرة؛ لهذا أكد النبي علي هذه العلاقة التي تربطهم فقال " الْمُؤْمِنُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ، الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، لَا يَخْدُلُهُ، وَلَا يَظْلِمُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقَرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ " (1) ، ومن هنا نهي الله عما نهي عنه في الآية لأن ما سوي المؤمنين خارجين عن حدود الإطار الإسلامي؛ فهم لا يألونكم خبالاً، أي : لا يقصرون في خزيكم، ولا حصول الضر فيكم، ولا يمنعونكم العداوة؛ فهذا هو منتهي الهدف وغاية الخطط .

قيل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين .

وعن أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - وكان قد ولاه عمر بن الخطاب على البصرة أميراً، قال : قلتُ لعمر يا أمير المؤمنين: إن لي كاتباً نصراني فرفع عمر يده وضرب بها على فخذ أبي موسى حتى كاد يكسرها وقال له: مالك قاتلك الله، أما سمعت الله يقول: " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم " قال أبو موسى : يا أمير المؤمنين لي كتابته ولهم دينهم، فقال عمر: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم وأقربهم إذ أبعدهم وأقصاهم الله .

وبهذه الصفة تظهر عدوتهم الحانقة، وتُكشَف نواياهم السيئة، ولقد اختبرهم الله تعالى في ذلك؛ فكشف عن قلوبهم السيء، وباطنهم المشحون " **لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَانُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا** **وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ " التوبة .**

لم تقتصر جهود المنافقين في خزي المؤمنين وإضرارهم فحسب، بل هذا بعينه ما يرنوا إليه، ويهدفوا لتحقيقه " **وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ " أي : هؤلاء المنافقون يودون لو تقفوا في المشقة والعناء وتلاقوا التعب الجهد، وهذا النوع من الناس وشاية مفسدة وأهداف مدمرة لا يتجرأ علي ما تجرؤا عليه إلا السقط من الناس، والسفلة من الخلق؛ فهم كالدود الذي يدب في الزرع لا هدف له سوي إشباع شهوته ونماء غريزته، ولا يبالي بما أهلكه من الحرث، وما أفسده من الأكل، وهم بذلك يجرمون الأمة الإسلامية من الانتفاع بشبابها المصلح، وعلمها المثمر .**

إن المؤمن الصادق هو المخلص في عمله الناصح لأهله الخادم لدينه الناهض لخدمة دولته الساعي لتحقيق المصلحة العامة، لا يخطوا خطوة في هذا العمل إلا وهو يوقد نار الغل في قلوب المنافقين، ويحرقهم بأعواد الغيظ الدفين، ويحرمهم لذة العيش والنعيم " **قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)** "

وهاتان صفتان من الصفات الأربع التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات، أما الصفتان الآخرتان قال عنهما صاحب المنار في تفسيره : الثالث والرابع قوله: قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر؛ أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم، فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها ويعز عليهم إخفاؤها، على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليه، وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة في الإصلاح ممن يدعونهم إليه، وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك، إذا لم يكونوا على علم بطبائع الملل، وقوانين الاجتماع، وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله به ؛ ولذلك قال: قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون؛ يعني بالآيات هنا: العلامات الفارقة بين من يصح أن يتخذ بطانة، ومن لا يصح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته، أي : إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الأعداء والأولياء؛ فاعتبروا بها ولا تتخذوا أولئك بطانة.(1)

ومن صفاتهم : بغض المؤمنين والاستهزاء بهم .

دفعهم هذا البغض الغشوم، والحقد المدفون إلي إظهار الإيمان إذا لاقوهم لكن إذا خلو عضوا عليهم الأنامل غيظا وحقدا، ونصبوا المخايل غلا وكرها، وزاد وهج النار فيهم آخره؛ فلم تبرد قلوبهم، ولم تهدأ نفوسهم، وقد جلسوا يدبروا خططا لمكرهم، ومخايل لكرهم " **قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)** "

دفعهم هذا الغيظ إلي كره الأنصار الذين ناصروا محمدا وأصحابه - صلي الله عليه وسلم - واستقبلوا المهاجرين إخوانهم، وقاسموهم المال والغنم، ثم بذلوا النفس والنفيس لهم؛ ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده؛ لهذا كان حب الأنصار من علامات الإيمان ومكملات العقيدة،

وبغضهم من علامات النفاق وجحود الشريعة، قال: صلي الله عليه وسلم : آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار"⁽¹⁾

بهذه المبشرات قام المجتمع المسلم في مدينة النبي - صلي الله عليه وسلم - علي أسس التأخي والحب التي رسمتها سماحة الإسلام، ومن هذا اليوم والمنافقون يعملون جادين في نبذ هذه الإخوة وتفريقها، وقد نجحوا كثيرا وفشلوا كثيرا؛ لكن تحقق نجاحهم الحقيقي في زمننا هذا؛ فكم من مشرد مسلم لا مؤوى له ولا ملجأ، يهيم في الوديان هاربا من نيران الكفر والنفاق؛ فهل له من أنصار يستقبلوه؟ وهل له باستقبال الأنصار للمهاجرين؟ وقد قاسموهم المال والزوجات والديار .

فلو أن المسلمين رجعوا إلي أنفسهم، وتذكروا ما يعانیه إخوانهم المسلمون في كل بلد قريية وغريبة؛ لكان في ذلك قطع النفاق أول امتداد راياته .

أيها التقي المؤمن ويايها الشباب المصلح؛ سيروا في غيظهم وقطعوا بصلاحكم أمعاء بطنهم واكسروا من اشدقهم عليكم أضراس أفواههم، ودعوهم فإن نار الغيظ ستحرقهم، وتقطع أمعائهم؛ فإنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

إن الواجب علي كل مسلم ومسلمه؛ أن يسعى صلاحا لبلده وخدمة لأهله وتقانيا لدينه، وما دام الانسان يصيب الصواب في فعله إرضاء لربه؛ فلا يبالي بمكر الماكرين ولا يمدح المادحين؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه؛ فلو أنكم فعلتم ما وجب عليكم لاسترحتم كثيرا .

لقد طالبنا الله بالسعي في الارض والصلاح فيها، ولو أن التفتنا لمكر هؤلاء وخداعهم لم نتحرك من ساكن، وقد سلبونا الظن بالله والوعد بالنصر؛ لكنه سبحانه وعدنا بالسعي مع كيدهم وغيظهم أجرا عظيما " **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) " التوبة .**

قال أبو إمامة الباهلي - رضي الله عنه - : المؤمن في الدنيا بين كافر يقتله، ومنافق يبيغضه، ومؤمن يحسده، وشيطان قد وكل به .⁽¹⁾

وقال علي - رضي الله عنه - : لو ضربت المؤمن على أنفه ما أبغضني، ولو أعطيت المنافق الذهب والفضة ما أحبني .^(٢)

ومهما يكن من شيء؛ فإنهم يبغضوا وجوهنا ويكرهون لقائنا، تدري لماذاي ؟ لأننا أمانا بالكتاب كله وكفروا هم به؛ فكان هذا شرفا لنا ومذلة عليهم ، " هَأَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) " .

ومن صفاتهم : يفرحون لإساءة المؤمنين ويحزنون لنصرهم .

بين الله تعالى استكمالا الآيات السابقة؛ فقال : " إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) " آل عمران

في الحقيقة لا يسلم من وقوع المصيبة أحد فهي يوم عندك ويوم عند غيرك؛ لكن العاقل الفطن هو من يستفيد من هذا المصائب والابتلاءات لأنه سيلدغ من الحجر نفسه أكثر من مرات .

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار ما لم تزود .

وعند وقوع المصيبة أو البلاء تظهر حقيقة الأخ أو الصاحب، ومدى الارتباط بينه وبين صاحبه فإن كان منصفا حقا صادقا في حبه مخلصا في معاملته؛ سيقف بجواره ويسانده، ويسعي صلاحا لحاله، وتفانيا لخدمته؛ وإن كان كاذبا لا شك سيعرض عنه ويتركه، ويفرح لما نزل من المصائب عنده .

وكننت أحجوا أبا عمر أختة ... حتى أملت بنا يوما ملمات .

وهنا تظهر أهمية الرابطة الإسلامية التي تجمع المسلمين في بوتقة واحدة وفي جسد واحد؛ حيث يساند المسلم أخاه وينصره، ويدفع عنه ألوان البلاء الذي نزل به، والضر الذي لحقه

١ صفة النفاق ودم المنافقين للفريابي (٦٦) .

٢ صفة النفاق ونعت المنافقين لأبي نعيم (٧٦)

ضمن ما تُحتمه إخوة الإسلام التي أمر الله بها؛ فإن الأمة الإسلامية هي أمة واحدة بنص القرآن الكريم الذي أزال بالإسلام عنها عصبية الجاهلية، وجعل المسلمين إخوة أينما كانوا، ومن أي جنس كانوا " **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)** " التوبة .

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " (١)

فإن من ضمن الواجبات المسلّم بها ومكملات الإيمان التي لا يستغني عنها : الوقوف بجانب المسلمين ومساندتهم، والقيام علي حاجة الضعفاء ومساعدتهم؛ فالمسلم لا بد عليه أن يشارك إخوانه في أفراحهم وأتراحهم؛ ففي الصحيحين : " **المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا** " (٢) وموقف المسلم من أخية موقف الرحمة والمحبة، ولا داعي لسرد موقف الأنصار وما فعلوه لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، حيث جعل النبي - صلي الله عليه وسلم - حب الأنصار علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق .

ولما كان المنافقون باعدين عن هذه التعاليم الربانية، خارجين عن حدود الأمة الإيمانية، وقد رضوا بأمة النفاق تجمعهم عند منبت الفساد وجذور الغل والشقاق؛ قاموا يفتنوا سم الفتنة بين القوم؛ ليقطعوا روابط الإسلام التي تجمعهم، وتوحد صفوفهم، وتظهر قوتهم؛ فيصيروا إخوة متباعدين وأعداء متخاصمين " **لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)** وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) " التوبة .

يقول تعالى : لقد ابتغوا الفتنة من قبل أي في غزوة أحد، وقلبوا لك الأمور أي المكائد؛ حتي ظهر أمر الله من سلامته لنبيه - صلي الله عليه وسلم -، وإصابة المشركين إلي آخره، وهم كارهون لظهور ذلك، وأما قول الجد ابن قيس " **أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي** " فهو من جملة الفتنة التي أرادوا بها سلب الإيمان من قلوب أصحابه - صلي الله عليه وسلم - فيبرروا موقفهم ويعتذروا إليه كما فعل الجد بن قيس وهرب من رق الجهاد؛ فهو والله لا يخاف

١ رواه البخاري (٢٤٤٢)

٢ رواه البخاري (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥)

الفتنة علي نفسه من نساء بني الأصفر كما زعم؛ فحال الرجل في الجهاد لا يسمح له أن يغازل فلانة أو ينظر لها وهو يعاين الموت وسكراته .

ثم بين الله حقيقة الأمر، وأن اعتذارهم عن الخروج لم يكن من مصلحة الإسلام إلي آخره، ولا صلاحا للإسلام من داخله، بل كان اعتذارهم احتياطا لسلامة أنفسهم من مباشرة الجهاد قسوته، ومع ذلك لم يكتفوا بسلامة أرواحهم من خالص العزاء، ونجاة لحومهم من ساحة الدماء، بل كشف الله عن مدي غيظهم، وتربصهم عن إساءة القوم وإصابتهم؛ فقال سبحانه : **" إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيْنَ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) " التوبة .**

فهذا هو حالهم يفرحون لإساءة القوم ويسوئهم الفوز والنجاة، وليس الحال إلا حال نفاق؛ فإذا لقوا الذين ءامنوا في حال الفوز والغنيمة لقوهم بالمودة وباركوا لهم، وابتسموا بوجوههم؛ وقلوبهم من ذلك تشتاط غيظا، وإذا لقوهم وقد عاينوا نزول المصيبة ووقوع البلاء أخذوا يعاتبوهم ويقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل أي حذرنا، ويتولوا وهم فرحون؛ قل لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ؛ فيا ليت القوم يعلمون : أن الله وعد عباده إحدى الحسينين وأنهم كما يتربصون بهم فإن المؤمنين أيضا يتربصون بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو بأيديهم .

نسأل الله لنا ولكم أن يجعلنا من الذين يكونون عوناً لإخوانهم ممن يشتد بهم عند نزول المصائب والبلايا، وأن يطهرنا من النفاق باطنا وظاهرا .

ومن صفاتهم : يظنون بالله غير الحق .

لماذا كانت هذه صفاتهم ؟ لأنهم فقدوا الإيمان بالله، ومن ثم فقد فقدوا ثمرته، وهي الرضا واليقين مما جعلهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية؛ فأصبحوا يتقلبون في الشكوك والأوهام، وقد منعهم هذا الظن السيئ الشعور بالأمان والركون إلي الشوكة الجارحة مما جعل من صفاتهم الخوف والرعب؛ السبب الذي حرّمهم النوم يوم أحد بعدما أنزل الله علي

المؤمنين أمنة نعاسا تفرضهم ذات اليمين وذات الشمال، وقد أنسوا ببرد الإيمان في قلوبهم واستراحوا لوعده الله، وطائفة أخرى قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .

فإنه لا يظن بالله ظن السوء إلا المشركون والمنافقون، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته؛ فإن من أخطر الأمراض وأشدّها: دخول الشك الاعتقادي، والضعف الإيماني قلب المسلم، وقد دب هذا المرض إلي الكثير من النفوس وصار اعتقاد البعض اعتقادا فاسدا " **إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) " التوبة .**

إن هذا الظن تظهر عاقبته الوحيمة يوم الابتلاء والامتحان " **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) " الاحزاب .**

في غزوة الخندق جاءت جنود الحجاز وأهل مكة من فوقهم، وجاء أهل نجد من أسفل منهم، وتعاهدوا علي استئصال الرسول - صلي الله عليه وسلم - وصحابته ثم تابعهم يهود المدينة فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة ، وقد اشتد الأمر وعم الخطب وطفح الكيل وفار التنور واستحكمت الأسباب وضاقت الحلقة واشتدت الخنقة وتخاذلت القوي، وحوصرت المدينة؛ فزاعجت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وبلغ الظن مبلغه، وظنوا أن الله لن ينصر رسوله ولن ينجز وعده؛ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وقد نجح المؤمنون في ابتلائهم فظهر منهم بريق الإيمان ولمع اليقين، قالوا : يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر قال " نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا " (١)

أما أهل الريب والظن لما فقدوا الايمان بالله، والرضا بأحكامه؛ سلط الله عليهم وحش النفاق ينهش من تلابيبهم بما يقذف به الرعب في قلوبهم، إنهم حائرون خائفون قلقون " **لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) " التوبة،** لأنهم لم يريدوا الله وجهه إنما أراد العرض من دنياهم فأعياهم الله بذلك، وقذف الرعب في قلوبهم " **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ "** لقد دفعهم هذا الخوف إلي إظهار نفاقهم وما انطوي عليه ضميرهم، حتي

قال المنافق معتب بن قشير يومئذ : " كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط "

" وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) "
لكنه سبحانه سرعان ما أظهر نصره، وأنجز وعده؛ فأرسل ريح الدبور على أعدائه؛ فانهزموا بالريح، وتولوا مدبرين، وبقي المنافقون بنفاقهم يزداد يوماً بعد يوم لينزع الإيمان من صدورهم، ويسلب اليقين من نفوسهم، وقد أورثهم سوء الظن يتمادى في قلوبهم؛ إلا أن جاء صلح الحديبية فظنوا أن النبي - صلي الله عليه وسلم - لم يرجع منها سالماً **" بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرِئِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) "** الفتح .

فأفسد الله ظنهم وخيب أملهم، وعاد الرسول سالماً مظفراً، وفات المنافقين شرفُ الصحبة وفضل البيعة - بيعة الرضوان- ، كأنهم لم يتعلموا الدرس من بدر **" إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرُورًا هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) "** الأقال ، في هذا اليوم زين الشيطان للكافرين أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس فخرجوا مستبشرين بعددهم وعدتهم؛ فأنزل الله جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا؛ فلما أبصر عدو الله الملائكة، تصور في صورة سراقه بن مالك؛ فنكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، فتشبت به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس .

فإن الظن لا يزال نتاج قلب فاسد استحکم الخوف جوانبه، واستأصل الإيمان داخله، وذهب الرضا واليقين منه أوله وآخره، فالمؤمن الحق يبقى على دينه واثقاً بربه ما سلمت أنفاسه لا يهتم لقول المنافقين ولا يضره انخدالهم .

ومن صفاتهم : الخوف والرعب .

لو صدق المؤمن في إخلاصه لله وعبادته، وأفني عمرة في نصره الدين وخدمته؛ لأراح الله قلبه، وأنزل على فؤاده سكينته وبرده، وكتب له نعمة الأمن وأقر بها عينه **" الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) "** الأنعام، هكذا المؤمن لا موارد في إيمانه ولا تلون في أفعاله؛ لهذا تجد نفسه مطمئنه، وأي شيء يخشاه أو يخافه ؟

بعد أن أطمئن بحفظ الله ربه، وأنس بوجوده وقربه، وإنك لتجده في معامع الحروب، وتلاحم السيوف لو حضرته الصلاة لصلّي، ولو غلبه النعاس لنام؛ أي شيء هذا الذي وقر في قلبه ؟ إنه الايمان بالله.

فالإيمان هو الحلقة المفقودة لو أكمل المرء إيمانه لكمل له كل شيء، ولعلك ناظر إلي عمر أي شيء دفعه فجعله يترك الدنيا وينام تحت شجرة؟ يوماً ألم به التعب وقاسمه الإرهاق، أما هذا المنافق لما فقد الإيمان بالله سلب الله عليه وحش النفاق ينهش من تلايبه بما يقذف به الرعب في قلبه؛ لأنه لا يريد الله وجهه إنما أراد العرض من دنياه فأعياه الله بذلك، وقذف الرعب في قلبه " **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) " النساء .**

قال خالد بن الوليد : لا نامت عين الجبناء .

لقد حرمهم هذا الخوف لذة النوم والراحة، وقد حُرّموا الشعور بالأمان في ظل سلام الإسلام " **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** " لأنهم ليسوا منه ولم يُنسبوا له، بل إنهم عارفي حقه، وجع في جنبه، المغرور بهم مغبون، والأمل فيهم مقطوع؛ لأن الخوف يدفعهم إلي الرجوع والفرار والزحف والتوالي، لهذا حذر الله من بطانهم والاعتماد عليهم، بل لا بد أن يكون اعتماد المؤمن وتوكله على الله وحده لا شريك له : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) (بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) " ال عمران .**

في هذه الآيات يحذر الله تعالي عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الخزي والردى في الدنيا والآخرة، والاعتماد عليهم يظهر حقيقته ساعة الجد وما هي إلا ساعة فرار وزحف .

إن المؤمن الصادق لا يخشي انهزاما ولا يخاف دركا؛ لأنه ما دام يفعل الخير في إطار ما حدده الله وشرعه؛ فإن معية الله تدرّكه " **قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) " الشعراء .**

فلو أنهم صدقوا الله في إيمانهم لكان خيرا لهم؛ لكنهم لم يصدقوا الله فكان هذا سبب خوفهم وجبنهم؛ فلم تستريح نفوسهم وتطمئن كما اطمأنت نفوس أهل الإيمان " **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا**

لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فِإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فِإِذَا
عَزِمَ الْأَمْرُ قَالُوا فَذَرُونَا لِيُذَاقُوا عَذَابَ اللَّهِ لَئِنْ كُنَّا لَنُؤْمِنُ بِهِمْ (٢١) " محمد .

والخوف علي كل حال مطلوب؛ لكنه الخوف الذي يورث الإيمان والخشية واليقين، لا
الخوف الذي يورث التوالي والزحف والظن والريب .

ومن صفاتهم : التوالي يوم الزحف .

هذه الصفة واحدة من السبع الموبقات، وكبيرة من الكبائر تحلق الدين وتذهب بالإيمان
وتورث طلاء النفاق، ولقد امتحنهم الله سبحانه بالجهاد وأخرج ما في بواطنهم وكشف
الخوف عما بداخلهم؛ فظنوا بالله ظن السوء وتخلفوا ورجعوا وتركوا دينهم من حيث أتوا.

"وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) " ال عمران .

لقد رأيتهم أولئك المنافقين وهم يتخلفون عن النبي - صلي الله عليه وسلم - في كل غزوة
غزاها؛ لأنهم لم يخرجوا ولم يقاتلوا إيماناً واحتساباً، بل قاتلوا رياء وسمعه؛ ذلكم المرض
الخبث الذي ورّم بالنفاق أقدامهم فتقلت عن الجهاد والخروج يوم أن حمي الوطيس،
وتلاحمت السيوف؛ إنه الخوف والريب وضعف الإيمان لا غير أفقدهم النخوة والرجولة
لملاقاته عدوهم .

لقد وبخهم الله وكذبهم يوم تخلفوا عن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - في غزوة تبوك
وقعدوا بعدما استأذنوه وأظهروا له حال الضعف والعجز عن الجهاد وأنهم ذو أعداء
وأسباب تمنعهم الخروج؛ فأذن لهم النبي - صلي الله عليه وسلم -، وقد بين الله قلب الأمر
لرسوله وما هم عليه من نفاق وخداع وكذب؛ فأنزل الله عليه " لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا
قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ
أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) " التوبة .

أي لو كان الخروج إلي تبوك مما يسوق لهم الغنية في متناول أيديهم دون تعب أو مشقة، ولم يجدوا في الخروج بُعد المسافة التي بين المدينة والشام لخرجوا معك؛ فبين الله لرسوله أنك إذا رجعت إليهم سيعتذرون لك والله يعلم إنهم لكاذبون .

لم يكن حالهم كحال المؤمنين يوم أن عاينوا مر النضال والجهاد وأخذوا أسلحتهم يوم الزحف دفاعاً عن الدين والوطن؛ بل هؤلاء المنافقون كفروا بالدين فمن ثم تخلفوا، وأما عن الوطن فإنهم يجلسون تبعاً للشوكة الجارحة لم يبالوا بكفر أو إيمان .

فموقف المؤمنين من الجهاد هو الثبات والحزم، وفكرة الجهاد راسخة فيهم حيثما نودي به خوفاً من أن يموت الإنسان علي شعبة من نفاق إذ لم يحدث نفسه بالجهاد، وهذا يسمى بالاستعداد الإيماني، وهو بالنسبة لحال المؤمن كالاتي المقدر لأي دولة، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - "من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق" (١)

فالنفاق لو أرادوا الخروج لأعدوا له عده؛ لكنهم لم يتأهبوا له، ولم يستعدوا بعدتهم للجهاد أصلاً؛ لهذا نفي الله الإيمان الكامل عنهم، وبين أن الذي يعتذر ويستأذن في القعود في مثل هذا الفرض ليس من المؤمنين علي الإطلاق؛ فبين الله حقيقة اعتذارهم وحال المؤمنين من ذلك؛ فقال سبحانه : " لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) "

فالتوالي يوم الزحف كبيرة؛ أمر الإسلام بالثبات في ساحة القتال " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا " [الانفال](#)؛ وهذا الثبات يؤكد صدق الإيمان ومخالفة الشك والريب " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " [الحجرات](#) .

عار علي المسلم أن يولي العدو دبره ويتقلص من المسؤولية ويخلع نفسه من الاختبار والامتحان الذي يصدق به إيمانه ويسلم به اعتقاده " وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) " [الانفال](#)

ومن صفاتهم : السعي بالفتنة بين جنود المسلمين .

قال تعالى : **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) "** آل عمران .

لم يكتفي أولئك المنافقون بفرارهم عند الزحف، بل سعوا بين القوم بالفتنة حتي يقعدوهم عن الخروج فلا يخرجوا، وأخذوا يقتنعوا الناس ببذع النفاق التي ابتدعوها، لهذا السب خرجوا فأخذوا يعدوا العدة للجهاد بإفساد القلوب ونشر الفتنة؛ فطردهم الله وأبعدهم وأشقاهم وما أسعدهم وكره انبعاثهم فثبّطهم، وبين الله سبب خروجهم فقال سبحانه : **" وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرهَ اللَّهِ أَنْبِعَاتِهِمْ فثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ بِيُعُوكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) "** التوبة .

لهذا حذر الله من موالاتهم والركون إليهم والاستماع لهم واتخاذ البطانة منهم؛ فإنهم لا يسعون إلا بالفتنة، لا يحسنون شيئا سوي ابتداعها **" لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ "** التوبة .

فهم دعاة فتنة وفرقة، سعيهم حثيث وحرصهم شديد على فرقة المؤمنين وتناحرهم، وذلك ليضعف أهل الإيمان وتكون الدائرة لهم، ولقد عظم ذنبهم، واشتد جرمهم لكن هناك ما هو أعظم وأشد من ذلك أنهم صاروا دعاة له ، كالذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .

ومن صفاتهم : الذب عن تحكيم الشريعة .

لقد كان المنافقون في عهد النبي - صلي الله عليه وسلم - يصلون ويصومون ويعملون الأعمال الظاهرة نفاقا مع بغض الشريعة ومعاداة أهلها والحزن لظهور أحكامها، غير أن بغض الشريعة والبعد عن أحكام الله فيها وأوامره نفاق ظهر في كثير من المنتسبين إلي الإسلام الذين يرون أن تطبيق الشريعة يتخالف مع حضارتهم وثقافتهم، وهذا يدل علي جذر النفاق الذي لم يقطع عبر السنين والأجيال ولا زال الناس يأكلون من ثمره الحنظل ويمضغون ذلك علي أضراس النفاق لتتنزل بسلاسة معدة الشر ومقر الخبث، وهم بذلك

يخدمون شهواتهم البهيمية ومطامعهم الجهنمية؛ حتى إذ ذهب الخوف وغاب الروع وشبع البطن، ذبوا عن الشريعة وأعرضوا عن أوامرها، ودخلوا بين الصفوف يضربوها والقلوب يفسدوها .

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)" النساء

وكان حالهم إحسانا وتوفيقا " فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) "

لقد نفي الله الإيمان عنهم إذا أنهم لم يُحكَموا الشريعة، ولم يرضوا بحكم الله وشرعه، وكيف النفاق يفيد صاحبه إذا استهان بحرمات الله وشرائعه " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) " محمد ، فقد عاقبهم الله علي بدعتهم وهذا شأن من كره النصوص، وأبي أن

يتحاكم إلي الله ورسوله " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) " محمد ، وقد ظنوا

أنهم إذا كتموا نفاقهم فإن الله لن يخرجهم؛ كيف وقد أخرجه الله علي سيمات وجوههم وفلتات ألسنتهم! " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) " محمد .

إن عدم تحكيم الشريعة والكفر بما أنزل الله من أحكام؛ لا يجتمع هو والإيمان في قلب واحد، وقد أقره الله في القرآن وطبقه علي حال أهل الكتاب " وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ " المائدة.

فإن الإعراض عن تحكيم هذه الشريعة المقدسة يعد فسادا في الأرض كبيرا ألا يعتبر تحكيم الشريعة مرد النزاع، وهي المصدر الثقافي لدي المسلمين يوم أن أذن الله تعالى بأن تشرق الشمس علي مجتمع جديد أحاطه الإسلام بإطاره - أوامره ونواهيته - " **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)** " النور

فيا ليت الناس يعلمون أن كل يسر أرادوه بالبعد عن أوامر الله هو عسر في ذاته قد استحكمت شدائده، وأن كل عسر في الشريعة خرجوا منه إلي يسر يطلبوه إنما يدل علي قلة علمهم وعموم البلوي بجهلهم وبعدهم عن مراد الله وإرادته " **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)** " النساء .

نسأل الله العافية .

ومن صفاتهم : أنهم لا يتدبرون القرآن ولا يعملون به .

فلم يزل كتاب الله كتاب نور وهداية وصلح وإرشاد، وهو دستور الأظم الذي حكم به بعدل ورشاد، أنزله ليكون شفاء القلوب وتعديل السلوك ونجاة الهالكين وبشري المؤمنين؛ فلقد أودع الله فيه من الآيات الباهرة والأمثال البالغة ما يرشد به المؤمنين إلي الفلاح والنجاة، وإن كنتُ أري أننا لو دققنا النظر في كتاب الله وقرأناه علي وجه التدبر والخشوع لكان ذلك قوام الأخلاق وصلاح السلوك .

ولقد كان الحال من المنافقين أنهم لم يتدبروا آياته ولم يبحثوا عن معانيه لأنهم لم يريدوا منه أحكامه، ولم يفتقروا إلي هدايته؛ فإنهم لما تخلوا عن كتاب الله فهما وقراءة، وتدبرا وإنصاتا، ضل حالهم وفسد أمرهم ومرضت قلوبهم واستغل الشيطان فراغها؛ فملاها بالغناء وكلام سوي كلام الله فنبت النفاق ونجم، وهذا حال كل من بعد عن كتاب يقرأه .

والذي نلاحظه هو قلة الاهتمام بكتاب الله والإعراض عما فيه والاستغناء عن معانيه، لهذا تری الكثير قد استولاهم النفاق وصار الأصل في تعاملهم، قال شيخ الإسلام - رحمه الله : من اعتقد أنه سيهتدي بهدى غير هدى الله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

لما ذب أولئك المنافقون عن تحكيم الشريعة، وكفروا بما أنزل الله كان ذلك نتاج إعراضهم عن كتاب الله فلقد عرفوه واستمالوا له، ولو أنهم قرأوه بإنصات وعقلوه بتدبر لنالوا هدايته وفازوا بنور الإيمان في قلوبهم .

فإنه مما يخشي علي قارئ القرآن منه أن يصير حاله مثل أولئك المنافقين إذا لم يستوعبه قلبه، ويتلقاه عقله، ويعمل به علي وجهه - حرامه وحلاله - فهذا هو ما ينبغي علينا فعله، وهو أن نجعل تلك القلوب تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها، ولعل من أجل هذه الوظائف هي تدبر كتاب الله " **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) " محمد .**

قال أبو عبد الله الحارث - رحمه الله - "ولن يستطيع الإنسان أن يقدر نعمة الله تعالي في هبة العقل له إلا إذا عرف أن العقول معادن الحكمة ومقتبس الآراء ومستنبط الفهم ومعقل العلم ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول " .

ومن صفاتهم : سماع الأغاني والملهيات .

كانت هذه عاقبة هجرهم لكتاب الله، ومأل إعراضهم عنه؛ حتي صارت قلوبهم شحيحة الإيمان فارغة غلب عليها الهوي وزاد فيها الفراغ؛ فملاها الشيطان بما يبغض الله، ويصد عن سبيله، وهو من البلاء الذي ابتلي به الناس في البيوت والشوارع والمواصلات والأفراح؛ فأصبحت مجالسهم لا تخلوا من وجود الشياطين، والآيات القرآنية تؤكد أن سبب إقبالهم علي سماع المعازف والملهيات هو هجرهم لكتاب الله؛ فإنك لا تجد مثل صاحب هذا الحال إلا هاجرا للقران معرضا عنه " **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّضْهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ (٧) " لقمان .**

لما ذكر الله حال إعراضهم عن كتابة والانتفاع بسماعه والبعد عن تدبر آياته؛ ذكر اقبالهم علي سماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، قال ابن مسعود في قوله تعالى: " **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** " قال: هو - والله - الغناء. (١)

وقد نزلت هذه الآية تحرم الغناء والمزامير؛ لما يحصل بذلك من فساد كبير في القلوب والأخلاق، وقد يجر ذلك إلى الضلال والغي والاستهزاء بالدين والاستكبار عن سماع القرآن، ثم لا يكون الحال إلا مفضيا إلي النفاق؛ كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: " إن الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع " ، فمثل هذا لا يليق بالمؤمن، والواجب على أهل الإسلام أن يحذروا شرها وأن يتغاضوا عنها بسماع ما ينفعهم من كلام الله عز وجل، ومن كلام الرسول - صلي الله عليه وسلم - .

قال قتادة : بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. (٢)

فالإنسان يُخشي علي حاله أن يؤدي الواجبات مع سماع المعازف والملهيات، وصاحب هذا الحال هو المنافق بعينه فلقد كان كذلك المنافقون يؤديون الواجبات من صلاة وصيام إلي آخره، ثم إذا جلسوا أقبلوا علي الغناء وآلات اللهو يستمعون إليها؛ حتي أصبح منافق اليوم أشد فسادا وأعظم خطرا؛ فإنه أصبح يؤدي ما عليه من واجبات مع إقباله علي الغناء واستحلاله، ورضا نفسه بما يفعل، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " ليكونن من أمتي أقوام، يستحلون الحر والحرير، والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسح آخرين قرده وخنازير إلى يوم القيامة " (٣)

فهؤلاء المنافقون لما أعرضوا عن كتاب الله؛ فسدت قلوبهم وصار كل فساد يطابق فساد قلوبهم مما يريح به نفوسهم ويذهب عنهم روعهم؛ فلقد عظم أمر هذه الاغاني واستنقل حملها علي المؤمنين الصادقين؛ ففروا عن سماعها طاعة لله وجهادا فيه واستبدلوا ذلك بما

١ السنن الكبرى للبيهقي (٢١٠٠٣)

٢ تفسير ابن كثير ٤٢٦/٣

٣ صحيح البخاري (٥٥٩٠) ومعنى الحديث : ومعني الحديث : ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الزنا ولبس الحرير والخمر والغناء ولينزلن أقوام إلى جنب جبل يروح عنده أغنامهم يروح عليهم راعيهم بغنم لهم فيأتيهم الفقير يسألهم فيقولون: ارجع إلينا غدا فيهلكهم الله من الليل ويدك الجبل علي رؤوسهم ويغير خلقة بعضهم فيجعلهم قرده وخنازير إلى يوم القيامة .

أحله الله لهم " **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) " الزمر .**

قال الإمام القرطبي : الغناء لم يكن من عادة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا فعل بحضرته، ولا اعتنى بمن يفعله، فليس ذلك من سيرته ولا سيرة خلفائه من بعده، ولا من سيرة أصحابه، ولا عترته، ولا هو من شريعته، بل هو من المحدثات التي هي بدعة وضلالة، وقد يتعامى عن ذلك من غلب عليه الهوى، قال - صلي الله عليه وسلم - : " **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد .** "

وقد ثبتت حرمة الغناء زمانا ومكانا، إجماعا واتفاقا بين جميع الأئمة وعلماء الملة، اللهم إلا من أراد الفتنة بين المسلمين وإغوائهم، قال الطرسوسي : وما الإسلام إلا كتاب الله، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وإن الرقص والتواجد أحدثهما أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار؛ فأتوا يرقصون حوله ويتواجدون، والرقص دين الكفار وعباد العجل.

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " **الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء الزرع**"^(١) ، فمثل هذه الأشياء لا يفعلها إلا منافق أرعن، أو متصنع جاهل قد التبست عليهم الحقائق بالأهواء .

قال العز بن عبد السلام : وأما نشيد الأشعار بتلك الألحان المحدثه، والنغمات المطربة فهو حرام؛ لا يفعله إلا أهل الفسق والضلال.

ومن أدلة تحريم هذا الغناء ما رواه أبو مالك عن النبي - صلي الله عليه وسلم - " **ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير**"^(٢)

وعن نافع أن ابن عمر سمع صوت زمارة راعٍ فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع أسمع فأقول: نعم، فيمضي حتى قلت: لا ، فرفع يده وعدل

١ شعب الإيمان (٤٧٤٦)

٢ رواه ابن ماجه (٤٠٢٠)

راحلته إلى الطريق وقال: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمع زمارة راع فصنع مثل هذا (١).

ومن أدلة التحريم أيضا قوله سبحانه : " **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)** " وجاءت سامدون علي لغة يمانية بمعنى : الغناء قاله ابن عباس ، وكذلك قوله سبحانه : " **وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ** " فسرره مجاهد بالغناء والمزامير .

أما إذا كان الإنشاد يصاغ بما اتفق عليه من غير فحش بغير طرب أو استعمال الآلات المنهي عنها، فهذا لا بأس به؛ لكن ما نراه اليوم فهذا غير مباح شرحا ، وكذلك ما يفعله بعض المتصوفة الذين خالطوا بذكر الله دفوفهم ومزاميرهم ، " **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)** " الأضال .

والحكمة من حرمة ما ذكره ابن رجب في رسائله قال : " واعلم أن سماع الأغاني يضاد سماع القرآن من كل وجه، فإن القرآن كلام الله، ووحيه ونوره الذي أحيا الله به القلوب الميتة، وأخرج العباد به من الظلمات إلى النور، والأغاني وآلاتها مزامير الشيطان؛ فإن الشيطان قرآنه الشعر، ومؤذنه المزمارة، ومصائده النساء كذا قال قتادة وغيره من السلف، والقرآن تُذكر فيه أسماء الله وصفاته وأفعاله، وقدرته وعظمته، وكبرياؤه وجلاله، ووعده والمستقذر باطنها، التي كانت تُرابًا، وتعود ترابًا وإن ذكر في شيء من الأغاني التوحيد، فغالبيه من يسوق ظاهره إلي الإلحاد ، وإن ذكر شيء من الإيمان والمحبة أو توابع ذلك، فإنما يعبر عنه بأسماء قبيحة، كالخمر وأوعيته ومواطنه وآثاره، ويذكر فيه الوصل والهجر، والصدود والتجني، فيطرب بذلك السامعون، وكأنهم يشيرون إلى أن الله تعالى يفعل مع عباده المحبين له المتقربين إليه كما يذكرونه، فيبعد ممن يتقرب إليه، ويصد عن محبه ويطيعه ويعرض عن يُقبل عليه، وغاية ما تحرك هذه الأغاني ما سكن في النفوس من المحبة، فتتحرك القلوب إلى محباتها من مباح ومحرم، وحق وباطل .

ومن صفاتهم : الاستتار والتخفي .

" لقد تحدث القرآن عن المنافقين في مواضع كثيرة، ومواطن عديدة، وأكثر ما تحدث عنهم في سورة التوبة حتى سميت الفاضحة لأنها فضحت المنافقين، وكشفت أحوالهم، وبينت أسرارهم ودواخلهم وخططهم، ثم فرغت سورة بأكملها للمنافقين كشفت أيضاً أسرارهم وأساليبهم، وبينت شيئاً من خططهم، سميت سورة المنافقين كل هذا لتحذير المجتمع المسلم من خطر هذا العدو الهدام الذي يحاربهم من داخلهم، ويسعى إلى تدميرهم خلسة وخفية حتى لا تراه الأعين، ولكن يجب أن تكتشفه البصائر .

إن أهم سمة وأخطر صفة لهذا العدو الهدام المدمر هي صفة **الخفاء** فهو داخل المجتمع المسلم، يظهر التعاطف معهم، ويخفي كفره وعداوته معه في باطنه، فالمكر والخداع والكذب هي أساليبه وأدواته لكن إذا سنحت الفرصة ووجد ثغرة ينفذ منها لضرب المسلمين فإنه يكون حينئذ أشد قسوة ووحشية ونكاية للمؤمنين من أي عدو مجاهر " **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) " التوبة .**

إن قدرة المنافقين على التحرك في الخفاء وسعيهم لتدمير المجتمع المسلم من داخله جعل خطرهم أشد وأعظم، وأنكى من خطر العدو المجاهر الكافر المعلن لكفره ولعداوته لأن أمر العدو الكافر المجاهر واضح للعيان فيأخذ المسلمون حيطة منه واستعدادهم له بخلاف هذا العدو الهدام الخفي المتسلل بين صفوفنا بخلاف المنافقين، وقد تسللوا إلى داخل المجتمع المسلم، وتشكلوا بشكله، وتصوروا بصورته، فإنهم كإبليس وجنوده يروننا من حيث لا نراهم، وقد نغتر بظواهرهم ونركن إليهم ونسند إليهم بعض شئوننا يديرونها، ونسلم إليهم بعض أمورنا يديرونها، وربما فعلنا أكثر من ذلك.

إذا كانت الغفلة فينا نحن المسلمون مستحكمة ربما اتخذناهم بطانة نأتمنهم على أسرارنا ونسلطهم على دواخلنا وفي ذلك الخطر كل الخطر، وأعظم من هذا خطراً إذا تمكن هؤلاء المنافقون من التقرب من ولاة المسلمين وأمرائهم وحكائهم، ونالوا الحظوة لديهم وأصبحوا من أعوانهم المقربين، وقد يُسندون إليهم أشد الأعمال خطراً وشأناً وأعظمها وأهمها شأنًا فيضطلع^(١) هذا العدو الخفي الهدام على أسرار المسلمين ويكتشف مكانهم ومداخلهم،

١ " فيضطلع " بمعنى : يتولى أو يباشر .

ونقاط الضعف فيهم، حتى إذا جاءت الفرصة، وفار التنور أنشبوا أظافرهم ومخالبهم، وكثروا عن نابهم " .

ولا أخفيكم سرا أن هذه الصفة بأكملها خطبة نقلت للشيخ عاطف جميل الفلسطيني وقد رأيت ما جمعه فيها، وما كان يدور برأسي حينها عبر عنه بأسلوبه المرتب، وكلامه المهذب، وفكره العذب؛ فاستغنيت بما قال ونقلت عنه ما كتبت .

غفر الله لنا وله ولكم ولجميع المسلمين، وكفاكم شر النفاق، وأعزكم بالإيمان ؛ اللهم أمين .

ومن صفاتهم: موالاة الكافرين .

في الحقيقة لا يستطيع قلبا ملاً بالنفاق والكفر إلي أخره أن يعيش يخادع أهل الإيمان كل الوقت، بل إنه لا بد لهذا القلب العدائي والجسد النفاقي أن يأوي إلي أهله من الكفار وأصحابه من المنافقين الذين تتوافق مذاهبهم وتتشابه طبائعهم؛ فالقلوب مع أشكالها تجتمع كالطيور علي أشكالها تقع .

وهذه صفة متأصلة فيهم تبين جرم نفاقهم، وتؤكد فساد قلوبهم، ولو لم يرد في صفاتهم غير هذه لكانت كافية لزوال الإيمان وفساد الطباع، ولقد كشف الله عن سوء نواياهم وبين الله حقيقة إيمانهم فأنزل الله فيهم " **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّوهُنَّ عِنْدَهُنَّ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)** " النساء

فالإيمان وموالاة الكفار لا يجتمعان في قلب واحد علي وجه الحقيقة، ومن هنا تتناقض دعوي الإيمان من المنافقين لموالاة الكافرين ومناصرتهم؛ فقد اغتروا بقوة الكافر وسيطرته، وما علموا أن العزة لله جميعا يعز من يشاء ويذل من يشاء " **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)** " المائدة .

ومع هذا لم يصدقوا الكافر في موالاته، بل إن زمام النفاق يجرهم إلي عاداتهم القبيحة وصفاتهم الدنيئة، وإننا والله نتعجب من هذه الفئة التي ليس لها صاحب ولا عزيز، وأنت حينما تقرأ في سورة الحشر ستعرف ذلك : " **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ**

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَنْ أُخْرِجْتُمْ لِنَحْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَصُرُوهُمْ لِيُوَلُّنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) "الحشر .

فانظر كيف عبر الله في الآية عن هذه الرابطة التي تجمعهم، فلم يكتفِ بذكر الذين كفروا، بل قال : "إخوانهم الذين كفروا" مبالغة في مدي قوة العلاقة بينهم، ومع ذلك نقضوا العهد وتخلفوا عنهم، وهي صفة متأصلة فيهم؛ فلئن أخرج يهود بني النضير من المدينة لا يخرج المنافقون معهم، ولئن قوتلوا لا يقاتلون معهم كما وعدوا، ولئن قاتلوا معهم ليولن الأدبار فرارا منهزمين، ثم لا ينصرهم الله، بل يخذلهم، ويذلهم.

إن الإخلاص والموالاة الحقيقية لا تكون إلا لله ورسوله والمؤمنين؛ فهي من أوثق عري الإيمان، ولقد أوجب الله علينا موالاة المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم كما أوجب علينا البراءة من المشركين وبغضهم وعداوتهم، وذلك بعد توحيد الله لا شريك له " لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) " المجادلة .

فالقلب الصادق في إيمانه، المخلص في محبته وإحسانه، يأبى موالاة الكافرين والمنافقين وإن وكانوا آباءهم وإخوانهم " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) " التوبة .

واقع أليم، ومسألة حلت بالمسلمين خطيرة؛ أن تري من المسلمين من يوالي الكافرين ويناصرهم، ويرضي بكفرهم وعداوتهم، بل ويفرح إذا كان له صديق من بلاد الغرب وأعوان الكفر، يشاركه ماله ويلقه بالمودة، يتعلم من أساليبه وثقافته، ويكتسب الدهاء من خبرته " وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) " المائدة .

فمثل هذه الأمور ليست من العقيدة الصحيحة التي أرسل الله بها رسوله، بل إنها من مظاهر انحراف العقائد الدينية، وفساد الطبائع الإيمانية، وأقرب الأسباب إلي الغي وأقصرها، والفجور باسم السفر والسياحة، وإغراء المسلمين لليهودية والنصرانية، ونشوب الفتنة بينهم، بل إن الواجب البراءة من عقائدهم، والابتعاد عن مجالسهم والاكْتِفَاءُ بما أنزل الله

علي رسوله " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) " النساء .

ومن صفاتهم : إذا قاموا إلي الصلاة قاموا كسالي .

لقد تميز صحابة النبي - صلي الله عليه وسلم - وسلف الإمة بجعلها الرائد تميزا بالصلاة جعل لها عظيم الأثر في نفوسهم وسلوكهم ومعاملاتهم؛ فكانوا إذا قاموا إلي الصلاة وأقبلوا عليها؛ خفضوا أبصارهم وواصلوا الخشوع قلوبهم، علموا أن الله مقبل عليهم إقبالهم عليه فلم يلتفتوا يمنة ولا يسرة، غلب عليهم الخشوع فيها فصارت الصلاة شجنة^(١) منهم، وكانت المساجد تعج بوجودهم، لم يتخلف عن الحضور إليها إلا مريضا غلب المرض علي أمره .

وقد ظهر فساد المنافقين في أشرف الأعمال وأطهرها وأجلها كليا وأعظمها إنها الصلاة قاموا إليها كسالي، واعترفوا بها جحودا وإنكارا، لا نية لهم فيها، يراعون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا، قال سبحانه : " وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي " النساء .

والمراد بقيامهم إلي الصلاة هو القيام في جماعة حتي أن النبي - صلي الله عليه وسلم - خاف النفاق علي عبد الله بن أم مكتوم، وقابل طلبه بالرد، واعتذاره بالرفض يوم أن طلب رخصة للصلاة في بيته، وقد جاء للنبي - صلي الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أنا كما تراني قد كَبِرْتُ سني، ورق عظمي، وذهب بصري، ولي قائد لا يلاومني قيادة إياي، فهل تجد لي من رخصة أصلي في بيتي الصلوات؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل تسمع المؤذن من البيت الذي أنت فيه؟" قال: نعم، يا رسول الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أجد لك من رخصة، ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها لأتاها، ولو حبوا على يديه ورجليه " ^(٢)

وحري أن تؤدي صلاة المؤمن علي الوجه الذي يُرضي المولي - سبحانه - من اتمام الركوع والخضوع والسجود والخشوع وبذل المحبة وإفراط الدموع؛ فصالح الإنسان من صلاح الصلاة فإذا تم خشوعها وحضورها وجاءت الصلاة في وقتها فهذه هي الصلاة التي

١ الشجنة هي الشيء الملتزق كما قال النبي : الرحم شجنة من الرحمن .

٢ المعجم الكبير للطبراني (٧٨٨٦)

تنتهي عن الفحشاء والمنكر، أما صلاة المنافق فقد ضاقت بها نفسه وازاد بها همه، وقد كره القيام إليها؛ فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها، تلك صلاة المنافق لا تغير شيء ولا تصلح حال ولم ترتقي لتكون موضع القبول عند الله .

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " (١)

إن الأصل في الصلاة أن تكون سكية في قلب صاحبها، ينجلي بها صدره، وينزاح بها همه، ويرتاح بها قلبه، ويشرق فيها عبق الإيمان ونور الطاعة وخمود الشهوة؛ لكن إذا صارت هذه الصلاة عبء علي صاحبها وثقلا في نفسه وغما عليها، فشعبة النفاق تهدد الإيمان في قلبه، قال ابن عباس : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم تلا قوله : " وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى " (٢)

فأنت يا من تصلي؛ لم تصل لتهرب من قيد الفريضة لإسقاط العقوبة، بل من ذل المعصية وشئوم الذنب إلي نور الإيمان ولذة الطاعة، وإن لم تكن كذلك فصلاتك لا خير فيها، تلك صلاة المنافق لا قيمة لها، وشعيرة لا يبالي بتركها، يؤديها بقلب ساه، وفكر لاه، ونفس مشغولة بحطام الدنيا الفانية، ولم يكتفِ بضياح حقها والإساءة لها، بل إنه يراقب أعين الناس حتي إذا كانت العتمة وغلس الصبح هجرها، وتخلف عنها، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوأ، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال، معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار " (٣)

ولقد أصبحت الصلاة اليوم في واقع كثير من الناس كما كانت تماما في حياة المنافقين لا قيمة لها، حيث خف اليوم مؤديها وكثر هجرانها، كان حذيفة - رضي الله عنه - يقول: إياكم

١ رواه مسلم (٦٢٢)

٢ تفسير ابن كثير (٥٣٨/١)

٣ رواه مسلم (٦٥١)

وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع.^(١)

فانتبهوا إخوة الإيمان: يقول الزهري: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: " لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضعفت " ^(٢)

ومن صفاتهم : يراعون الناس .

لم يكتف المنافقون بالإساءة إلى الصلاة والتكاسل عن أداءها، بل جعلوها محل الأنظار؛ حتى ففسدت صلاتهم، وصارت ذنباً عليهم وكبيرةً يقتربونها إن لم تكن فسدت من قبل، دليل علي استهان نظر الله لهم، وبعدهم عن رضاه سبحانه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة، استهان بها ربه عز وجل" ^(٣)

والحقيقة أن الرياء مرض في قلب صاحبه ووباء عليه، مفسد لعمله ومحبط لأجره لم يدخل الرياء شيئاً إلا أفسده وجعل عاقبة أمره خسراً، استحق به المنافقون الدرك الأسفل من النار لاستتارهم بداخله لكن الله لم يستترهم به؛ حتى إذا نزعه الله عن المنافق بانته سؤءته، وكشفت مداجاته، وعرفت مدهنته، لأن ثوب الرياء لم يستتر أحد، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - "من سمع الله به، ومن راعى راعى الله به" ^(٤) تلك عبادة المنافق، ما أحب أن له الدنيا وما فيها بنظر الناس له والأنس بوجودهم.

قال ابن الجوزي : عجا من أهل الرياء علي من يبهرجون وربك يعلم ما تكن صدورهم .

لقد شرع الله تعالي العبادات، وجعل شرط قبولها الإخلاص، والأصل في قيامها صفاء النية؛ فقال سبحانه : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ " ثم ماذا..؟ " وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) " البينة ، فأقام الصلاة، وابتاء الزكاة إلي

١ مدارج السالكين (ص٥١٧)

٢ صحيح البخاري (٥٣٠)

٣ مسند أبو يعلى ٥٤/٩ (ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٢٩٠) من طريق زائدة عن إبراهيم الهجري وبه قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٢١): "فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف".

٤ صحيح البخاري (٦٤٩٩) وصحيح مسلم (٢٧٨٧).

آخره، يأتي بعد ذلك إذا تحقق هذا الأصل العظيم، وتوفر هذا الركن القويم؛ فلا قيام للأعمال علي وجه القبول إلا أن يتوفر الإخلاص لله ظاهرا وباطنا، وقد تعتمد أولئك المنافقون القيام بأداء العبادات لله مع تعمد إظهارها للناس ليُحمدوا عليها، وتقر عيونهم بها، وقد أظهروا الخشوع فيها والإخلاص منها " **فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ** " الأنعام .

والرياء إذاً ؛ هو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا بصاحبه خيرا، وهو مأخوذ من الرؤية التي بها يسعى طلبا في إرضاء الناس ورفع أعماله محل أنظارهم؛ دفعه ذلك إلي أن صار عبدَ الدينار والدرهم وطالبا لهم وخدامهم، صار كل همه حطام الدنيا ورضا الناس له؛ فأصبح يرائي في الخلوات كأنهم ينظرونه، ويرائي في العلن وهم حوله، " **الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)** " فكما أنهم فعلوا الأعمال ليراها الناس؛ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار، توعدهم الله بالويل وجعل الدرك الأسفل من النار نهاية طريقهم، وعقاب نفاقهم فويل لهم، ثم ويل لهم .

مرض الرياء هو أحد الأمراض الوبائية التي تنتسل إلي القلوب فتفسدها، وتجعل الإيمان فيها رأسا علي عقب، محال أن يجتمع هذا وذاك في قلب واحد إنما هم في قلب المنافق يتصارعان فهو لأيهما غلب، وهذا هو القلب المصفح الذي قصده حذيفة.

إن حياة المؤمن لا تخرج عن حلبة الصراع الدائر بين فطرته الإيمانية وما يعانیه من عدوه الظاهر بالشرك والكفر، وإذا شهد الإنسان شهادة الحق، واستوي الإيمان في قلبه؛ فلن يسلم من عدوه الأعظم خفاءً والأكثر دهاءً إنه الرياء الذي خافه النبي - صلي الله عليه وسلم - علي أصحابه وأمته، وحذر منه فقال : " **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** " قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: " **الرياء**، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: **اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**"^(١)

فمرض الرياء من أخطر الأمراض التي تُصاب بها القلوب، وإن جهنم لتحمي وتسعر فيبدأ بهم؛ فلا يصلهم من الخير ما عملوا، ولا ينفعم من الإيمان ما زعموا " **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)** " الفرقان . فإن الأعمال التي يقوم بها المرأون

١ رواه أحمد (٢٣٦٣٠) وهو حديث حسن

من أعمال البر وصلاح المجتمع إنما هي أعمال كذب، ولا ثواب لهم عليها إلا الدرك الأسفل من النار، كما قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " إن المنافق ليصلي فيكذبه الله، ويصوم فيكذبه الله، ويتصدق فيكذبه الله، ويقاتل فيكذبه الله، ويقتل، فيجعله الله من أهل النار " (١)

فأنت أخي المؤمن دعك من أولئك المنافقين وفساد قلوبهم؛ فلا تصعد في الرياء صعود الشمس في الأفاق، واعلم أن الله سيحيط عملك يوم الحساب عليه إذا قصدت به أنظار فلان وعلان " **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) " الأنعام .**

فالخوف من الرياء من علامات الإيمان وسمات الصالحين، ولا ينبغي للعبد أن يترك العمل الصالح خوفا من الرياء أن يحبط عمله؛ فإن تركه من أجل الناس رياء، وفعله لأجلهم شرك، بل لا بد للإنسان أن ينتبه أشد الانتباه فإذا وجد مثلا نفسه في حضرة قوم، وهو يفعل الخير كتحريك الشفتان بالقران أو الأصابع بالاستغفار إلي آخره، أو كان في المسجد يصلي، والقي الشيطان في قلبه رؤية فلان له ووصول الشيخ خلفه ينظر صلاته ويتأملها؛ فليعلم أنه علي مفرق من الطرق، ولا بد له أن يكون ثابتا علي يقينه، جاعلا المولي ورضاه نصب عينه؛ فإنه إن ظفر بمطلوبه فقد نال كل شيء؛ فما الذي يُحزّنك لو كان الله هو الناظر إليك؟

أخرج الحاكم في مستدرکه عن رجل شغل بحب ثناء الناس فالتقي برسول الله - صلي الله عليه وسلم - وقال له يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يذكرني الناس فلم يرد عليه النبي - صلي الله عليه وسلم - فنزل فيه قوله تعالي : " **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) " الكهف (٢)**

" فشان هذا الرجل في الموقف الذي بين أيدينا شأن كثير من الناس يدفعهم لإيجاد العمل، وحسن السمعة أو الشهرة أو مشاعر الأحباب، والإسلام يراقب بعناية فائقة ما يقارن

١ صفة النفاق ونعت المنافقين لأبي نعيم الأصبهاني (١٥٣)

٢ الحديث أخرجه الحاكم في مستدرکه علي الصحيحين (٢٥٢٧)

ويصاحب أعمال الناس من نيات وما يلبسها من مشاعر وعواطف، ولا يرقى العمل ليكون موضع القبول عند الله إلا إذا تخلص من شوائب النفس، وخلص لمرضات الله وحده" (١)

والذي ينظر لحال السلف في تحقيق صفات العابدين والاجتهاد في العبادة، يجدهم يخلصوا العمل لله لا ينظرون لفلان ولا لما يقال عنهم؛ فكان خفاء العمل عندهم والاستتار به من عيون الناس شيء يبعث علي الاقتداء بهم والتمسك بأفعالهم؛ فكان سفيان الثوري رحمه الله ينتظر حتي تنام زوجته فإذا نامت قام الله يصلي دون أن تعلم به؛ حتي شعرت به يوما فخادعته بنومها وعلمت أنه يصلي بالليل .

فيا أخي المؤمن اجعل عملك لله لا للناس؛ حتي وإن كان كلامهم تشجيعا لك ورفع هممك لا غير؛ فعليك ألا تغتر بذلك حتي لا يكون هذا همك الأكبر وسعيك الأول، وإنما عليك أن تستعن بالله وأن تسأله بقدر إخلاصك أن يتم لك ما نويت؛ فإن عليا رضي الله عنه ذكر للمرائي علامات لو اجتمعت عليه لأهلكته، قال : للمرائي علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم به .

كأنه حال الكثير فينا لذلك فالزم أمورا لا بد من فعلها إذا وجدت في نفسك ذلك؛ عليك أن تعظم قدر الله فيك، وأن لا تُضَيِّع نظرتَه بنظرة الناس لك، وأن تجعل رضاه سبحانه نصب عينك؛ فإنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا، وابتغي به وجهه، ولو أنك تماديت في ذلك رغبة في نظر الناس لك؛ فهذه شعبة النفاق لا غير، وبداية الانحراف والغِي، فإن السلف - رحمهم الله - كانوا يخافون هذا النوع علي أنفسهم من ضياع الأعمال هباء منثورا؛ فكانوا يراقبون الله في مطعمهم ومشربهم ليكون الله وحده لا شريك له؛ فكيف بصلاتك وصدقاتك وفيهما أساس الإسلام وأصل الإيمان .

ولا أخفي عليك : أن قلوب الناس متغيرة قد يحبونك اليوم ويكرهوك غدا؛ فمن طلب رضاهم ضاع سعيه إذ لا بد أن يكون السعي لله وحده " **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) " الإسراء** . فعليك أن تستعين بالله فإنه يوفق علي قدر الإخلاص ومدى صدق النية، وأن تتعوذ بالله من أن يصيبك هذا المرض القاتل؛ فيفسد عملك ويحبط أجرك؛ فعن معقل بن يسار قال انطلقت مع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: " يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديبب النمل " فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر؟ قال النبي - صلى الله عليه

١ مواقف وعبر للدكتور محمد محمد داوود (٣٨/١)

وسلم - : " والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم" (١)

أخبر بعض السلف أنه كان يقول في الرجل يمدح في وجهه : " التوبة منه أن يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيرا مما يظنون" (٢)

ومن صفاتهم : لا يذكرون الله إلا قليلا .

لقد عم البلاء بلاء الله لهم، وأظلم الإيمان قلوبهم، وساد الفساد ما بين أيديهم وما خلفهم، لقد أفقدهم الله أطواق النجاة، وحرهم لذة القرب والمناجاة، ويا له من عقاب استحقوه لفساد سرائرهم وسوء بواطنهم وخبث نواياهم؛ فعاقبهم الله بالطرد عن بابه والصد عن حجابهِ يوم أن ضلوا هذا الحصن الذي كان يؤويهم ويحفظ بالمعينة ما بين أيديهم .

إنه ذكر الله : أضلهم الله عنه؛ فصاروا يتيهون في شعب الظلمات ووديان المخاوف، وهم في تشردهم لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون، ويتكالبون عليه ويتسارعون، نسوا الله فنسيهم، وسلبهم الإيمان وحرهم؛ فصارت قلوبهم بلا إيمان، وعقولهم بلا إدراك، وأجسادهم بلا روح، فقد بين النبي - صلي الله عليه وسلم - قضية الذكر فبين أنها قضية حياة أو موت فقال - صلي الله عليه وسلم - : " مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت" (٣)

لقد نشدَ الناس طريق السعادة وراحة البال في كل مَسَمَعٍ وَمَبْصَرٍ، وهم في بحثهم يظنون أنها في عيش حميد، ومركب وطيد وملبس جديد وزوج سعيد؛ فابتعدوا عن تعاليم الله، ونافقوا من أجل الوصول لمرادهم وتحقيق أملهم، وهم بذلك قد ضلوا عما طلبوه، وانحرفوا عن مسار ما أرادوه " **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**" الرد

فقضية الذكر من جنس أصل الإيمان لا تنفك عنه، ولا تُنتقض لكونها مذاق ثمرته وبرهان وجوده والأصل في زيادته؛ من فقده فقد الإيمان والرضا والتسليم والمحبة، وليس له سوي

١ الأدب المفرد للبخاري (٧١٦)

٢ شعب الإيمان ٤٥٣٤

٣ صحيح البخاري ٦٤٠٧

السخط والضجر حياة يعيشها، فوالله ما بلغ عمل من ليل أو نهار مبلغ الارتفاع والتعظيم، وتقدير صاحبه غاية التقدير، إلا كان ذكر الله دليلا له وبرهان عليه وشرطا فيه وسبيلا موصلا إليه، كما قال - صلي الله عليه وسلم - " ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟ " قالوا : وما ذاك يا رسول الله؟ قال : " ذكر الله " (١)

وقال معاذ - رضي الله عنه - : " ما عمل آدمي عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله " (٢)

لقد فقد المنافقون ماعون الحياة ووقود الإيمان ودرهم السعادة ورباط العبادة وعصاية الجهاد وسفينة النجاة والحصن من الشيطان، لقد فقدوا ذكر الله؛ فأوحلوا في الطين وسبحوا في الطوفان وخيموا في الوحل، بنست حياتهم حياة النفاق؛ فالتمر دون الطعم لا يذاق . " وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) " طه ؛
والوصف بالضنك مبالغة يدل علي سواد معيشتة وفساد لذته وقليل راحته، وعلي عكس هذا فأهل الإيمان قد استبشرت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واتسعت صدورهم وجاء وعد الله لهم " مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) " النحل.

ما يصنع بي أعدائي؛ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحمت فهي معي لا تفارقني؛ أنا حبسي خلوه، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة - إنه ابن تيمية كان يقول في محبسه بالقلعة : لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابا في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها (٣)

يقول الأصمعي : " الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية؛ فليس وراء فضل الذكر شيء، جميع الخصال المحمودة

١ ابن ماجة (٣٧٩٠)

٢ رواه أحمد (٢٢٠٧٩)

٣ الوابل الصيب لابن القيم ١/٥٩-٦٠ .

راجعة إلي الذكر، منشئها عن الذكر، وفضائل الذكر أكثر من أن تعد وتحصي، ولو لم يرد فيه غير قوله تعالى " فاذكروني أذكركم "

وقد جاء القرآن يؤكد لنا أن ذكر الله أعم وأجل وأكبر من كل شيء؛ فقال سبحانه: " **أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)** " العنكبوت.

ومن صفاتهم : التذبذب .

لقد ضل المنافقون عن طريق الإسلام وتعاليمه، وما يغرسه من الإيمان واليقين في النفوس وتلقينه؛ فعاشوا حياة تذبذب ونفاق، وتحول وإخفاق، بلا مبادئ تملكهم ولا نظام يحكمهم، وقد صيرهم النفاق لا يخرجون عن تذبذبهم؛ كالأشاة بين الغنمين تعير إلي هذه مرة وإلي وهذه مرة، وحياة مثل هذه لا مبادئ فيها، ولا أساس للقيم بينها، تخفق أمام التحديات، وترتمي في أحضان الكفر، وهي لا تكاد تلاحظ سير أقدامها إلي الدرك الأسفل .

فإن الأمة الإسلامية تواجه تحديات فادحة من طوائف العالم المحيطة بها منذ بعثته - صلي الله عليه وسلم - ولو أهملت مبادئ الإسلام الأخلاقية في كل زمان، وسمح للخيانة والنفاق بالانتشار لزالَت المعاني الإنسانية، وتحولت الحياة إلي جحيم لا يطاق؛ فهذه القيم الإسلامية هي كل شيء في حياة المسلم، ولو فقدته لأدي ذلك إلي اهتزاز في العقيدة التي تعتبر جماع المبادئ والمصالح، ومركز التوازن بينهما.

والذي يميز المسلم ويعصمه هو المبدأ الذي يحفظه من التذبذب، وفقدان التوازن في حالة الكفر والإيمان سواء؛ لهذا حرّم الله علينا مثل هذه الأمور التي تنافي الشرف الإنساني، وتعارض وسطية الإسلام واستقامته .

قال ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام يقول - أي في الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - : استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمناً ولا يسرة.^(١)

فصراط الله المستقيم صراط لا اعوجاج فيه، واستقامة الإنسان عليه تعني الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله - صلي الله عليه وسلم - وهي سعادة الإنسان وفلاحه وفوزه ونجاحه وعدته لشدائده وزاده لمعاده، وما أشد حاجتنا نحن المسلمين إليها .

لقد أتم الله لنبيه نعمته أن ثبته في مواجهة الحياة، وعصمه من الفتن ظاهرها وباطنها " **وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) " الإسراء .**

والإسلام بمنهجه يميز اتباعه عن غيرهم؛ فموقف المسلم هو الثبات والصمود أمام تحديات العصر وتيارات الأحداث فلا يعلوا مع غلو من غلا، ولا يسفل عند تساهل من تساهل، بل إن له رأيا يميزه وفكرا يساعده، هذا لأن الإسلام ليس كسائر الأديان التي عاينها العرب، بل هو مفهوم شامل لجميع الجوانب من اعتقاد ودولة ونظام، وكل شيء يخص المسلم يدرّس ضمن عقائده؛ فلا حاجة للتلون والتذبذب، والإسلام يضمن لنا الراحة والسعادة الأبدية لهذا فلا داعي للنفاق.

ومنذ احتلال الغرب للبلاد المسلمة، وظهور الفتن وإغرائهم بها؛ ظهر الأمر الذي جعل العالم الإسلامي تحت أزماتٍ ومشكلاتٍ داخلية وخارجية، يوم أن فقدوا مبادئهم؛ لذلك فالعالم بحاجة إلي إيجاد شخص مسلم مقتديا بالسلف الصالح علي وفق منهج النبي - صلي الله عليه وسلم - وشمول فهمهم واعتقادهم وسلوكهم؛ فيصيب الوسط في كل شيء دون إفراط أو غلو، وما نراه اليوم يجعل القلب مقدرًا حزينًا ما فاشًا بين كثير من المسلمين من غلو صنيع وتفريط وتضيق وتذبذب وتردد ودعوة الناس إلي حرية البطون من شهوة وجنس لا من معتقد وفكر .

ومن صفاتهم : ولا ينفقون إلا وهم كارهون .

لقد أوجب علينا الإسلام العمل بأوامره، والتزام أركانه وشرائعه، وجعل الله الإنفاق في سبيله ركن من أساسيات الإسلام، ومكملات الإيمان؛ قال سبحانه : **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ " البقرة .**

ولا ينبغي لعاقل مسلم أن يغفل عن هذا الأمر أو ينكره؛ إذ أن المنافقين لما ضلوا طريق الهداية وسبل الرشاد، وذَبَّوا الشريعة بكل غباء وعناد، وهم بذلك ضلوا طريق الصواب ومصالحة العباد لم يبق لم سوي صدئ الإيمان زاد، وقد فقدوه في ملحمة النفاق يحاربون الشرع، ويعادون الله وملائكته ورسله وجبريل وميكايل؛ دليل علي إخفاقهم في الابتلاء ورسوبهم في الامتحان؛ ففروا بالنفوس وكره إنفاق المال، وكان حالهم مع المؤمنين يجري العكس؛ فلما اشتري الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة خاطب المنافقين فقال :
"قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ (٥٤) " التوبة .

إن الإسلام يفرض علينا أن لا نبخل بالمال ولا نكره إخراجه؛ فالمال مال الله، والفقراء عياله، والواعد الصادق هو الذي يصدق في وعده، والوعد الحق هو وعد الله سبحانه؛ فقد وعد الله عباده المنفقين حسن العاقبة بكمال الإخلاف عليهم لما أنفقوا من أموالهم فقال : **"قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) " سبأ .**

لقد تصور المنافقون بزعمهم أن المال قوام الأمر وماعون الحياة؛ لهذا مسكوا أيديهم، وكرهوا انفاقه؛ فبين الله حقيقة الدنيا، وأن الإيمان والتقوي هما كل شيء فيها؛ قال سبحانه **"إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) " محمد .**

قال ابن كثير " وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم ثم قال: " إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم " ، قال قتادة: " قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان".^(١) لهذا كرهوا إخراج المال .

١ تفسير ابن كثير ٤/١٨٤ .

ماذا قدم المهاجرون للأنصار مقابل ما فعلوه؟ وماذا قدم الفقير للأغنياء مقابل ما أعطوه؟ إن الإيمان قائد والعمل سائق والنفس حرون، ولقد فقد المنافقون معالم الفطرة وسبل الهداية؛ يوم أن سلبوا الإيمان وفقدوه، فهل سمعتم بمثل استقبال الأنصار؟ وهل شاهدتم مثل هذا الإيثار؟ لهذا كان المتصدقون هم عباد الله وأحباءه، وحفظة الإيمان وأمناءه الذين علموا أنه لا يبقى لهم إلا ما أخرجوه، وأن حاجتهم للصدقة تفوق حاجة المتصدق عيه .

"مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (٢٦١) البقرة.

فيا لها من أرباح عظيمة، ويا له من كرم ما بعده كرم؛ أفبيلغ الطمع بالإنسان إلي أن يطمع في مثل هذا الخير فضلا في أن يطمع الإنسان في كرم الله وفضله؟، لقد ضرب الله المثل بالإنفاق يبين مدي الثواب والعطاء والإخلاف في الدنيا مع ذلك بالزيادة والنماء، قال سبحانه : **" الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (٢٦٢)**

تري هذه الحبة التي ضوعفت إلي سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة إن لم تكن ضوعفت مئات المرات؛ فإنها بفضل الله ضوعف آلاف المرات **" وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (٢٦١)** ، فإن للإنفاق في سبيل الله منزلة عالية رفيعة كاد الصحابة يتقاتلون عليها؛ وهم في ذلك لا يجدون إلا لذة الإيمان وحب الإنفاق وبغض النفاق؛ فكانت عائشة – رضي الله عنها – تطيب الدرهم قبل إخراجها .

ولقد ضرب النبي - صلي الله عليه وسلم - المثل يؤكد أن الصدقة تدفع عن الإنسان أسباب البلاء والعذاب، وتفك عنه أسر الهلاك؛ فقال : **" وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلي عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديكم بالقليل والكثير ففدي نفسه منهم" (١)**

١ أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) وقال حديث حسن صحيح وأحمد (١٦١٧٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٤).

ومن صفاتهم : عدم الرضا بقسمة الله ورزقه .

قال سبحانه : **" وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) " التوبة .**

كان من صفات المنافقين أنهم لم يرضوا برزق الله ولم تعجبهم قسمته؛ فعابوا علي النبي - صلي الله عليه وسلم - في توزيعه للصدقات، ولمزوه في تقسيمها، وهم بذلك لا يريدون عدلا، ولا يقصدون حقا؛ إنما أرادوا أن يصرفوا الناس عن القسمة النبوية لا غير .

ليس من الإيمان ما فعلوه، وبئس الشر الذي أرادوه، مع أنهم يعلمون أن لا حق لهم فيها، بل أرادوا أن يذهب الناس وقد سخطوا بقسمة رسول الله لهم؛ فكان منهم ذو الخويصرة التميمي الذي وقف موقفَ الباطل، وقال : اعدل يا محمد .

لما مُنع المنافقون الزكاة، وكرهوا إخراج المال دل ذلك علي سخط قلوبهم وجشع نفوسهم؛ لكنه ظهر حقيقةً يوم أن خرجوا يسابقون خطي الطمع وصولا للمال حين القسمة لعل شيء من ذلك ينالهم؛ فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون **" وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) " التوبة.**

فالمؤمن الصادق يرضي دائما بقسمة الله له، ولا تُضّر نفسه لخسة المال أو كثرته، بل إن الإخلاص لا يستوي في عمل حتي يرضي الإنسان بعباء الله لا بعباء الناس، ولعلك تري الكثير من الناس ممن لا يعمل حتي يعرف راتبه، ويأخذ علي ذلك رهن أو مقدم، ولقد جلست يوما في مسجد أقرأ من القرآن علي شيخ وكان بجواره شيخ آخر فجاءت طالبة تقرأ عليه تقول له إن الشيخ فلان أرسلني أقرأ عليك فقال لها : ارجعي إليه فقولي : عندما يزيد راتبنا سوف اجعلك تقرئين .

لهذا بادر النبي - صلي الله عليه وسلم - حتي يزيل ما التبس بنفوس الأنصار؛ كي لا يكون الموقف موقفَ نفاق؛ فعن أنس - رضي الله عنه - أخبر أن ناسا من الأنصار قالوا لرسول الله - صلي الله عليه وسلم - حين أفاء الله على رسوله - صلي الله عليه وسلم - من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله - صلي الله عليه وسلم - يعطي قريشا ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم - أي لم يمض الكثير علي قتالهم - فأخبر أنس رسول الله - صلي الله عليه وسلم - بمقاتلهم، فأرسل إلي

الأَنْصَارَ، فجمعهم في قبة من آدم، ولم يدع معهم أحدا غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " ما كان حديث بلغني عنكم "، قال له فقهاؤهم: أما ذوو أرائنا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم؛ - أي حديث عهد بالإسلام - فذكروا له مقالتهم التي نقلها أنس؛ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إني أعطي رجالا حديث عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به "، قالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا، فقال لهم: " إنكم سترون بعدي أثره شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على الحوض " قال أنس فلم نصبر .^(١)

ومن صفاتهم : نقض العهد وخلف الوعد .

إن النفس البشرية تكمل عبادتها إذا عبت الله حق العباداة، وحسنت معاملتها معه سبحانه، ومن هنا يظهر الوفاء كخلق من الأخلاق الكريمة، وصفة من صفات النفوس الشريفة؛ فهو أساس البناء وركن الاستقامة، وهو الاعتراف بالفضل ورد الجميل .

وإن أعظم عهد يجب الوفاء به هو الوفاء مع الله بأن يعبد وحده لا يشرك به شيئا، وعهد الله إلي العباد معلوم فلقد عهد الله إليهم بطاعته وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والالتزام بسنته، والقيام علي أمره؛ فعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وحوله عصابة من أصحابه : " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه " فبايعناه على ذلك^(٢)

فإنه علي قدر وفاء العبد لربه يكون وفاء الله لعبده، ولا يمكن للعبد أن يكون وفاء مع الناس حتي يكون وفاء مع الله؛ لهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أوفي الناس للناس لأنه كان أوفي الناس بعهد الله؛ فينبغي إذاً أن تؤدي الحقوق لله بوفاء وإخلاص لأنه علي قدر إخلاص العبد ووفاءه يكون وفاء الرب وعطاؤه .

١ رواه البخاري (٣١٤٧)

٢ رواه البخاري (١٨)

ومن هنا يظهر أن الوفاء بالعهد أصل من أصول الشريعة التي يتحقق من خلالها الخير والعدل والصلاح واستقامة الأحوال؛ إذ أن تنفيذ العهد دليل بر ووفاء، والإخلاف بالعهد من مظاهر الكفر والنفاق، وقد أكد النبي ذلك، وشدد عليه فقال: " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان" (١)

وسرعان ما نجد خلاف ذلك من المنافقين فقد خلعوا البيعة من أعناقهم، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وهم بذلك خلعوا رتبة الإسلام فخرجوا عن حدوده وتركوا ما أوجبه الله عليهم "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) " الأنفال .

لقد أمر الله بوفاء الوعود لينتشر الأمن والطمأنينة في قلوب العباد، وتقوم أمور الناس علي شريعة من المودة والإنصاف، وإن العالم ليزلزل اليوم لما استخف فيه من الوعود وأتخاذها وسيلة إلي المطامع وتحقيق الرغبات؛ حتي أصبح الوعد لا يدل علي الوفاء، وبات الناس في أمر مريج.

"وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ نَأْتِيَنَّ مِنْ فَضْلِهِ لِنَصَّدَّقَنَّ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) " التوبة .

في الحقيقة هناك خلاف بين العلماء كبير فيمن نزلت فيه هذه الآيات، والمتفق عليه أنها نزلت في جماعة من المنافقين عاهدوا الله لو أعطاهم من فضله وأغناهم؛ ليؤدو الحقوقي إلي أهلها؛ فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون؛ فكانت عاقبتهم أن أعقبهم الله نفاقا في قلوبهم إلي يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكذبون.

ومن صفاتهم : إشاعة الفاحشة .

فالمنافقون يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا يباليون بانتشار العورات وفضح المحصنات المؤمنات، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء والمرض، وموت العلماء، وارتفاع الأسعار، وهلم جرا.. وهذا ما يريده المنافقون ويقصدون إبرازه في كل

١ رواه البخاري (٣٣)

مجتمع مسلم، وهم علي مكانتهم عاملون بكل ما أتوه من وقاحة وقوة في المراوغة، واستدراج في أكل لحوم إخوانهم المؤمنين بدون علم أو اطلاع علي الحقائق الواقعية .

أولئك أشخاص يوجدون في كل عصر ومجتمع يعملون علي التباس الحقائق، وإشاعة الفاحشة؛ فيقذفون ويروجون ويقولون كذبا، ويخلقون إفكا، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويسعون جادين في إطفاء المعالم الإسلامية التي يسعى العلماء إلي إبرازها وإعلاء شأنها ورفع مكانتها؛ فلم يسلم من أذاهم أحد لا الأنبياء في مكانتهم، ولا العلماء في مراتبهم، ولا الرؤساء في قوتهم، ولا حتي العذارى في خدورهن .

فهؤلاء هم الذين يفعدون بكل صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من أمن به، ويبغونها عوجا؛ فلو أن لهم بقية من الإنسانية، أو أثارة من علم يدركون به هذه المضار التي تقع علي الأمة الإسلامية من إشاعة الفاحشة، ودعوى الإباحية، والتثديد بتحرير المرأة لماتوا خجلا وذابوا سيلانا؛ ولكن يظهر من عييبهم أنهم لا يبالون بهذا وقد سبوا فلانا، وشموا فلانه، وقطعوا عرضه، ومزقوا لحمه؛ ولقد تجرأ ابن سلول فتكلم في عائشة، وتولي كبر الحديث ومعظمه، ثم مشي كأن علي رأسه الطير، وفاته ما كانت تعانيه السيدة - رضي الله عنها - من مرض وسقم .

قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " مَنْ أَشَاعَ عَلَىٰ أَمْرِي مُسْلِمَ كَلِمَةٍ بَاطِلٍ لِيُشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْبِيَهُ بِهَا مِنَ النَّارِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ بِنَفَادِهَا " (١)

والإنسان والله يحزن عندما يري علماء الأمة وقادة الملة تسب وتشتم وبالإساءة تقذف من أولئك السفلة ممن لا يستوي مع خيطٍ في نعل أحدهم نعد؛ ولغاية الأسف " **فيكم سماعون لهم** " والعجيب أنهم أخذوا بمنهج السلف - رحمهم الله - في محاربتهم للمسلمين "التخلية قبل التولية" فهم يجردون الأمة من علمائها قبل أن يملوها بإشاعة الفاحشة وانتشار الباطل؛ حتي لا يجدون لهم فيه من معارض، وهذا بعينه ما فعله أحمد بن أبي داؤود المعتزلي الذي تكلم بخلق القران؛ المحنة التي وقع علماء السنة ضحايا لها، والابتلاء الذي أصيب به الناس في أواخر عهد المأمون العباسي .

لم يذهب ابن داؤود المعتزلي إلي الناس فيكلمهم بخلق القران، وإلا ضرب بالنعال، ولكن ذهب إلي الخليفة مباشرة؛ فألقي إليه القول بخلق القران وحسنه عنده؛ حتي تبعه وعزم علي

الدعاء إليه؛ فكتب المأمون وهو بالثغر بطرسوس كتابا إلي نائبه ببغداد (إسحاق بن إبراهيم الخزاعي) يأمره بدعوة الناس إلي القول بخلق القرآن - معاذ الله - فلم يجب أحد إلي القول بخلق القرآن؛ فكتب كتابا ثانيا يأمر فيه بتقيد من لم يجبه وإرساله إليه، وكان من المقيدين إليه الإمام أحمد بن حنبل، ولكن الخليفة عاجلته المنية قبل وصول المقيدين إليه .

ولما استخلف المعتصم جدد الفتنة، وحمل الناس علي القول بخلق القرآن، وطلب الإمام أحمد للمناظرة؛ فناظرهم ولم يزل معهم في جدال عدة أيام فلما قطعهم بالحجة؛ ضربوه ضربا وجيعا، وسجنوه قرابة ثمانية وعشرين شهرا؛ فلما استخلف الواثق استمرت الأوضاع علي حالها حتي بويع المتوكل؛ فرفع البدعة وأحيا السنة.

فإذا جاءك الخبر من أنباءهم؛ فتأكد منه أولا، ثم اجعله يموت عندك بين جلدك وعظام صدرك، وإلا كنت مروجاً مثلهم، وداعيا إلي انتشار الفاحشة " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) "** الحجرات .

ومن صفاتهم : الرطانة بالأعجمية من غير حاجة ولا ضرورة .

والرطانة - بالفتح - كلام لا يفهمه عامة الناس الذين نشأوا في بيئة الإسلام، وقد يلتبس عليهم الكثير من حديث هؤلاء المنافقين الذين أرادوا أن يجعلوا بينهم لغة لا يفهمها غيرهم، وقد نهى عمر - رضي الله عنه - عن رطانة الأعاجم، وكره ذلك الإمام الشافعي - رحمه الله - .

ولا يصح للإنسان أن يترك اللغة العربية لغة القرآن ويتحدث بحديث الأعاجم من غير حاجة ولا داجة؛ فيذكر لك كلاما لا هو عربيا خالصا ولا أجنبيا خالصا فتفهم منه وتجهل أكثره، ولا حاجة له في ذلك إلا إظهار العلم، وإبداء الفهم، والرياء بدرجته العلمية، والتكبر علي الذين لا يفهمون خطاب الأعاجم، وغاب عن صاحب المكانية أن يتحدث بخطاب الأعاجم والرطانة : من جملة الموالاتة لهم، والاعتزاز بلغتهم وشعارهم غير أن اعتياد هذا الفعل لا ريب مكروه، ويؤثر تأثيرا قويا في حفظ القرآن الكريم وإن كان حفظه عن ظهر قلب .

فمن القضايا التي فشت في المجتمع المسلم حديث الأعاجم سكان الغرب من أهل الكفر والفسوق: الذين يروجون للفساد والفتن بلغتهم وأساليبهم، ومن دواعي الأسف " **وفيكم**

سماعون لهم " فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يعجبهم إيقاع الحديث، ونبرات الكلم، تاركين ما أنعم الله عليهم به من لغة جعلها الله لغة كتابة، ولغة رسوله - صلي الله عليه وسلم - فالحفاظ علي هذه اللغة : من جملة الأمور التي تحفظ كيان الدولة الإسلامية عن غيرها، وتميزها بطابع العربية عن سواها .

ولو نتذكر أن اللغة الفرنسية عل سبيل المثال كانت لغة فرنسا، والفارسية لغة بلاد فارس، والعربية لغة البلاد الإسلامية إلي آخره، ومنذ أن جاء الاحتلال صارت الفرنسية في جنوب أفريقيا وحدود المغرب، والإنكليزية هنا وهناك، والإسبانية غربا وشرقا؛ وخرجت الفارسية عن إطار أهلها؛ حتي صارت الرطانة بحديث الأعاجم دليل علي أن هذه البلدة كانت محتلة، بل لم يبال أهلها بما فعله الاحتلال فيهم من قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم، وقد تركوا لغتهم الأصلية وفضلوا لغة المحتل عليها .

قال عمر - رضي الله عنه - : " ما تعلم رجل الفارسية إلا خب، ولا خب إلا نقصت مروته" (١)

والإسلام لا يضيق علي أهله أن يتعلموا لغة العدو ليأمنوا الغدر والمكر منه؛ لكن هذا يكون في ظروف معينة ضمن جماعة مختصة؛ فمن المنهي عنه أن يتحدث المسلمون بغير لغتهم في المحاضرات الشرعية والعربية، واستبدال المصطلحات بأخري من القواميس الأجنبية، والإشارة ببعض الكلمات الأعجمية واستبدال ذلك بكلمات أخري تدل علي الطلب والرفض، ويزداد الأمر سخطا ونفاقا إذا سمي ولده بغير أسماء شرعية عربية؛ فترى من يسمي بجون ونيفين وريتال وريتاج إلي آخره

ومن صفاتهم : حسن المظهر .

فهؤلاء المنافقون يزينون الظاهر بحسن المظاهر، وكى الملابس، وبخ العطور، وتسبيغ الشعر، وقص اللحي، وتركوا الباطن يملأ بالنفاق والكبر والحسد؛ فوصفهم الله بحسن الحديث وجمال الجسد، لكنهم في الحقيقة هياكل بلا شحم، وأشباح بلا روح، وأجساد بلا عقل، وشتان بين من يعمر باطنه بالتقوي والإيمان، ومن يعمر ظاهره بحسن المظهر

١ الأدب لابن أبي شيبة (٥١)

وتتفق الحديث؛ قال سبحانه : **" وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَدٌ "** المنافقون

وهذه الصفة من أشهر صفات المنافقين علي الإطلاق؛ حيث أن ظاهره دائما أجمل من باطنه؛ فقد عمر الظاهر بالإيمان، وأفسد الباطن بالكفر والعصيان؛ لهذا تجد الكثير ينخدع فيه حتي أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - انخدع في ابن سلول في بداية الأمر لجمال مظهره وحسن حديثه؛ قال ابن عباس - رضي الله عنه - : **" كان عبد الله ابن أبي وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - مقالته "** (١)

ثم بين النبي - صلي الله عليه وسلم - الأمر، وأن صلاح الإنسان أو فساده؛ أمر لا يدرك من مظهره أو حلو حديثه؛ فقال - صلي الله عليه وسلم - وقد مر عليه رجل : **" ما تقولون في هذا؟ "** قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: **" ما تقولون في هذا؟ "** قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول الله - صلي الله عليه وسلم - : **" هذا خير من ملء الأرض مثل هذا "** (٢)

ولا حرج علي الإنسان أن يظهر جميلاً، ويبدووا وسيماً، مع إصلاح باطنه وصفاء نيته؛ فإن في صلاح الجوهر والمظهر نور علي نور يهدي الله لنوره من يشاء، ولعل من غلبة النفاق ما تراه اليوم في مظهر كثير من الشباب الذين ساقهم التقليد الأعمى تقليد الغرب الكافر في ملبسهم ومظهرهم؛ فصاروا يلبسون الممزق، ويرتدون المعصفر، ويحلقون الشعر قزعا، ويجرون الثوب خيلاء، ولا يبالون بلباس الحرير، وقد نهى النبي - صلي الله عليه وسلم - عن مثل هذه الأمور التي لا تليق بالشباب المسلم أبداً، وأن هذا من خاصة الكفار .

فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - رآه وعليه ثوبين معصفرين؛ فقال : **" إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها "** (٣)

ونهي النبي - صلي الله عليه وسلم - عن القَزَع وهو : حلق بعض الرأس وترك بعضه أو حلق جوانب الرأس وترك وسطه أو العكس كما يفعل شمامسة النصارى والكثير من السفلة، وسئل الإمام أحمد عن حلق القفا، ويدخل فيه حلق بعض الرأس وترك بعضه؛ فقال: هو من

١ تفسير القرطبي (١٨ / ١٢٤)

٢ رواه البخاري (٥٠٩١)

٣ رواه مسلم ٢٠٧٧ والعصفر هو : صبغ أصفر اللون .

فعل المجوس، وقد نهى النبي - صلي الله عليه وسلم - عن القزح في حديث ابن عمر فقال :
احلقه كله أو دعه كله .^(١)

نسأل الله تعالى أن يطهرنا من النفاق، ومن صفات المنافقين ظاهرا وباطنا، وأسأله لي ولك
الإخلاص والنجاة، وصلي الله علي سيدنا محمد .

١ صحيح البخاري (٥٩٢١) جامع معمر بن راشد (١٩٥٦٤).

فصل في : البراءة من النفاق .

فالحمد لله؛ بعد عرض هذا الكتاب وذكر مسالب المنافقين وصفاتهم، أظنك سائلا عن براءة الإنسان من النفاق، وسلامة عقيدته من كفرهم، وقيل أن أتركك تذهب لخاتمته جعلت هذا الفصل في نهاية الكتاب إجابة عما يدور بداخلك إن كنت أمعنت النظر فيه، ودعوت الله بإخلاص أن يطهر قلبك من النفاق ظاهرا وباطنا .

اعلم أخي؛ إن من أجل ما يسعي إليه العقلاء هو تهذيب المرء نفسه، وإن الإذعان للحق والاستسلام لأوامره من مبشرات الإيمان، وحينما يري الإنسان نفسه بدأ يشعر بمواقف النفاق، وزلات الرياء فعليه أن يعرض قلبه علي كتاب الله وسنة رسوله - صلي الله عليه وسلم - حتي يشعر بتحسن حالته وذهاب علتة، وقد تقدم الحديث في المبحث الثاني بعنوان : كيف نتقي المنافقين وقد ضيقت علي القارئ بشدة الاختصار والإجمال، وأن الأمور المذكورة هناك مع أنها أصل كل شيء إلا أن الكثير قد يتحجج بأنها أمور أساسية والكل يفعلها وقد لا تفي بغرضه؛ لهذا سأذكر هنا بعض الأمور التي تدفع فاعلها بأمر الله إلي البراءة من النفاق **أولا** : أن تدرس جيدا صفات المنافقين، ثم يكون الأولي منك مخالفة ما هم عليه .

ثانيا : الدعاء لله بالبراءة منه؛ فكان من دعاء النبي - صلي الله عليه وسلم - : " اللهم طهر قلبي من النفاق، وفرجي من الزنا، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " (١)

ثالثا : البعد عن النفاق خوفا من ضياع الإيمان وذهاب الأجر والإحسان؛ فعن عمر مولي غفرة قال : " أبعد الناس من النفاق أشدهم تخوفا على نفسه منه " (٢)

رابعا : إدراك الجماعة ، قال النبي - صلي الله عليه وسلم - : " من صلى لله أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق " (٣)

١ اعتلال القلوب للخرائطي (٢٨٧)

٢ الزهد والرفائق لابن المبارك ١٤/٢

٣ رواه الترمذي ٢٤١ عن أنس مرفوعا.

خامسا : الصلاة في مسجد النبي؛ قال - صلى الله عليه وسلم - : " من صلى في مسجدي أربعين صلاة، لا يفوته صلاة، كتبت له براءة من النار، ونجاة من العذاب، وبرئ من النفاق" (١)

سادسا : الشرب من ماء زمزم، والتضلع بها؛ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق" (٢)

سابعا : ذكر الله وكثرة الصلاة علي النبي - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا، ومن صلى علي عشرا صلى الله عليه مائة، ومن صلى علي مائة كتب الله بين عينيه: براءة من النفاق، وبرائة من النار، وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء" (٣)

ثامنا : حب الصحابة وذكر فضائلهم : قال أيوب السخيتاني : "ومن أحسن القول في أصحاب محمد فقد برئ من النفاق" وقال ابن حبيب: "ومن قال الحسنى في أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد برئ من النفاق".

تاسعا : قراءة المقشقتان وهما : قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الناس، لأنهما كانا يبرأ بهما من النفاق؛ قال أبو عبيد: كما يقشش الهناء الجرب فيبرئه، وقيل: هما: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد؛ وفي الحديث : كان يقال لسورتي قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، المقشقتان، وسميتا مقشقتين لأنهما تُبرئان من الشرك والنفاق إبراء المريض من علته .

عاشرا : ما دام النفاق لم يصب شيئا من اعتقاد المرء كأن يأتي مثلا بخلاف الشريعة، مع حفاظه علي أوامر الدين والبعد عن نواهيه إلي آخره .. فهو إن شاء الله بريء من النفاق ، فعن أنس بن مالك، قال: غدا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم، فقالوا: " يا رسول الله، هلكننا ورب الكعبة، فقال: "وما ذاك؟" قالوا: النفاق، قال: " ألستم تشهدون

١ رواه احمد ١٢٥٨٣ وإسناده ضعيف .

٢ أخبار مكة للأزرقي ٥٢/٢

٣ المعجم الأوسط (٧٢٣٥)

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله؟" قالوا: بلى يا رسول الله.
قال: "ليس ذاكم النفاق" (١)

فاللهم إنا نسألك البراءة من النفاق، والسلامة من الشرك، والنجاة يوم الحساب؛ اللهم طهر
قلوبنا بطاعتك، و صفي النوايا بخشيتك، واجعل الأعمال خاصة لك .

الحمد لله الذي منّ عليّ بإرشاد المؤمنين، وأنعم عليّ بالسداد والتوفيق؛ أحمده سبحانه علي عظيم فضله، وكمال إنعامه ولطفه، وأسأله المزيد، وبعد :

فإني بحمد الله قد سلكت في هذا الكتاب مسلك التحري والتيقن، وجمع المادة من أفواه الأئمة العظماء وصرير أقلامهم، مع شدة اختصاري، والاكتفاء بأداء المعني المطلوب، ولم اكتفِ حقيقة برأيي أو رأي غيري ممن أحب، بل جمعت آراء كثيرة مع ذكر أصحابها ليستوعب القارئ منهم العلماء، وما كان عليه السلف - رحمهم الله - .

وهناك أقول في الحقيقة لم أعتز علي أصحابها، وأسأل الله أن يبلغهم ثواب ما قالوا .

وقد تجد أيها القارئ العزيز في المبحث الثالث أني لم أذكر جميع صفات المنافقين علي وجه الدقة؛ إذ أن الصفات التي قرأتها أنت قابله للزيادة ما دام النفاق فينا يسري سريان الماء في العود؛ فقد جمعت الصفات الظاهرة من صفات المنافقين، والمتفق عليها بين علماء المسلمين، ولم أذكر صفة الخيانة مع أنها صفة لازمة فيهم لا تنفك عنهم بحال لكني اكتفيت بذكر أخواتها من الكذب، وخلف الوعد، وذكرت أنه يلزم من وقوع إحداهن اجتماع الصفات الثلاث .

وأخيرا فإن ما كتبتة أنا : بداية ما انتهى عنده غيري، وأدين لهم بالفضل في إرشادي قبل إرشادكم؛ فأنا بما كتبت عالية علي كتابتهم؛ لم أقدم في هذا الشأن سوي جمعي لهذه المادة، وأعلم أن علي رغم كل المراجعة والتتبع وتصويب الأخطاء، لا زال الكتاب يعترضه ما يعترضه من أخطاء، قال الشافعي : أبي الله أن يتم إلا كتابه .

لهذا أرجوا المعذرة من الأخطاء التي قد تواجهك؛ راجيا ألا تبخل عليّ بتصحيح ما تري من أخطاء، ويمكنك ذلك بالتواصل معي من خلال رسائل البريد الإلكتروني :

abdelhalemahmed789@gmail.com

وصلي الله وسلم علي نبيه محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله في تمام يوم الأربعاء: التاسع عشر من شهر ذي القعدة لسنة ١٤٣٩ هجرية،
والموافق : ١ / أغسطس عام ٢٠١٨ ميلاديا .
وصلي الله وسلم علي نبيه محمد .

كتبه

عبد الحلیم أحمد عبد الحلیم

المراجع :

١. تفسير ابن كثير : القرآن العظيم/ طبعة بيروت /الناشر دار الحديث
٢. تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ طبعة دار هجر
٣. تفسير السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / تحقيق عبد الرحمن اللويحق / طبعة مؤسسة الرسالة .
٤. الجامع لتفسير الإمام ابن رجب/ دار العاصمة - السعودية /الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م
٥. التفسير الميسر : لنخبة من علماء السعودية /الطبعة الثانية/ طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
٦. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لفضيلة الشيخ محمد رشيد رضا /طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م
٧. صحيح البخاري : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه / بتحقيق محمد الناصر /طبعة دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ
٨. صحيح مسلم : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي /طبعة بيروت /دار إحياء التراث العربي .
٩. الأدب المفرد للبخاري /دار البشائر الإسلامية - بيروت /الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩
١٠. المعجم الأوسط للطبراني /دار الحرمين - القاهرة .
١١. مسند أبي يعلى الموصلي /طبعة دمشق / دار المأمون للتراث .
١٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (صحيح ابن حبان) تحقيق شعيب الأرنؤوط / طبعة بيروت مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
١٣. سنن الترمذي تحقق أحمد شاکر /الطبعة المصرية/ دار البابي
١٤. مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون/ طبعة مؤسسة الرسالة
١٥. شعب الإيمان للبيهقي /طبعة السعودية دار الرشد .
١٦. الجامع لابن وهب/ طبعة دار الوفاء/ الطبعة: الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م
١٧. الزهد والرقائق لابن المبارك/ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

- ١٨ . الاعتقاد للبيهقي / طبعة دار الآفاق الجديدة - بيروت/ الطبعة: الأولى، ١٤٠١
- ١٩ . أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار للأزرقي/ طبعة دار الأندلس للنشر - بيروت .
- ٢٠ . عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني/ طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٢١ . فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني /دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩
- ٢٢ . تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي /طبعة دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
- ٢٣ . مقاييس اللغة لابن فارس/ دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٢٤ . لسان العرب لابن منظور/ طبعة دار صادر - بيروت /الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
- ٢٥ . الصحاح للجوهري/ دار العلم للملايين - بيروت/ الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- ٢٦ . القاموس المحيط للفيروز أبادي/ مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان /الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- ٢٧ . جامع المسائل لابن تيمية /دار عالم الفوائد /الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢ هـ
- ٢٨ . الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية /طبعة الحرس الوطني السعودي، السعودية
- ٢٩ . الفتاوى الكبرى لابن تيمية /طبعة دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م
- ٣٠ . أمراض القلب وشفؤها لابن تيمية /المطبعة السلفية - القاهرة.
- ٣١ . مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم /دار الكتاب العربي - بيروت
- ٣٢ . إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم/ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م
- ٣٣ . الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم /طبعة دار الاستقامة - القاهرة تحقيق وشرح العلامة بن باز
- ٣٤ . طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم /دار السلفية، القاهرة، مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ
- ٣٥ . الروح لابن القيم /دار الكتب العلمية - بيروت .

٣٦. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (شفاء العليل) لابن القيم/
دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
٣٧. صفات المنافقين لابن القيم / ملحق بكتابه مدارج السالكين.
٣٨. صفة النفاق ونعت المنافقين لأبي نعيم/ البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان الطبعة:
الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
٣٩. صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي/ طبعة دار الصحابة للتراث، مصر الطبعة:
الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٤٠. حديث القران عن النفاق والمنافقين - محمد سيد طنطاوي .
٤١. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي / طبعة دار الفاروق الحديثة .
٤٢. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لابن رجب تحقيق
شعيب الأرنؤوط/ طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت .
٤٣. شرح العقيدة الواسطية لعبد الرحيم السلمي (شريط صوتي).
٤٤. الرد علي الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل / دار الثبات للنشر والتوزيع/ الطبعة
الأولى .
٤٥. تحريم النظر في كتب الكلام لابن قدامة المقدسي/ طبعة دار عالم الكتب - السعودية
- الرياض / الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
٤٦. سيرة ابن هشام/ طبعة دار الفجر للتراث - القاهرة.
٤٧. الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثني بن حارثة الشيباني (كتاب الردة
للواقيدي) تحقيق يحيى الجبوري/ طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٤٨. كتاب التوايين لابن قدامة المقدسي/ دار ابن حزم/ الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م
٤٩. ذم الهوى لابن الجوزي .
٥٠. الفتح الرباني من فتاوي الامام الشوكاني تحقيق أبي مصعب / طبعة مكتبة الجيل
الجديد، صنعاء - اليمن
٥١. اعتلال القلوب للخرائطي/ الناشر : نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة-الرياض .
٥٢. أخبار المدينة لابن شيبية .
٥٣. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد لأبي
طالب المكي/ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
٥٤. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي دار الكتب العلمية -
بيروت/لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م

٥٥. مواقف وعبر لمحمد محمد داوود / طبعة دار المنار ، القاهرة.
٥٦. فضائح الباطنية للإمام محمد الغزالي / طبعة الكويت – مؤسسة دار الكتب الثقافية .
٥٧. قاموس البدع المستخرج من كتب العلامة الألباني / طبعة دار الفجر- الدوحة – قطر/ الطبعة الخامسة ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.
-

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل